

المغرب القديم بعيون مغربية

حميد عرايشي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية . وجدة

لقد تعددت في العقود الأخيرة الخطابات وتنوعت الإسهامات في دراسة التاريخ القديم، وكثر الحديث عن ندرة الاهتمام بالمغرب أو شمال أفريقيا، وعن عدم اهتمام الجامعات المغربية أو المغاربة بالتاريخ القديم بما فيه الكفاية، وارتفعت الأصوات منادية بإعادة كتابة أو صياغة تاريخ المغرب أو مراجعته وخاصة عصوره القديمة¹.

¹ - أنظر : إبراهيم حركات، من مصادر التاريخ المغربي قبل الإسلام، البيعة، ع 5، 1962، ص. 90 و 93 ؛ نفسه، المغرب عبر التاريخ، المجلد 1، الدار البيضاء، 1965، ص. 9-11؛ عبد العزيز بن عبد الله، تاريخ المغرب، العصر الوسيط والقديم، د.ت. ص. 3؛ عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، الدار البيضاء، 1984، ص. 19-21، 23، 26-28 و 32؛ عبد الله العمراني، العرش المغربي عبر التاريخ، الثقافة المغربية، عدد 8، 1973، ص. 109 ؛ الحسن السائح، شخصيتنا التاريخية، الرسالة التربوية، عدد 5، 1977، ص. 4-5 ؛ إبراهيم بوطالب، "البحث الكولونيالي حول المجتمع المغربي في الفترة الإستعمارية، حصيلة وتقوم"، في البحث في تاريخ المغرب: حصيلة و تقوم 1986، الدار البيضاء، 1989، ص. 107، 129-134 ؛ محمد الشريف، "سبب الحديث ملاحظات حول توجهات البحث في تاريخ مدينة مغربية"، مجلة أمل، السنة الثانية، العدد 6، 1995، ص. 100-101 ؛ محمد شفيق، لحة عن ثلاثة و ثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين، الرباط، 1989، ص. 113 ؛ عبد الكبير العلوي المدغري، ضمن هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي، الجزء الأول، المحمدية، 1995، ص. 3-5 ؛ عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي - 1 - مغرب الأرض والشعب، بيروت، 1996، ص. 95 و ما يليها؛ نفسه، كتابة تاريخ المغرب الحديث بين الموضوعية والتزييف، الأكاديمية، العدد 24، السنة 2007 (2008)، ص. 74؛ محمد المبكر، شمال إفريقيا القديم. حركة الدواوين و علاقتها بالدوناتية 305م - 429 م، الدار البيضاء، 2001، ص. 75؛ محمد بوكبوت، الممالك الأمازيغية في مواجهة التحديات : صفحات من تاريخ الأمازيغ القديم، الرباط، 2002، ص. 9؛ جامع جفامي، في "تاريخ الأمازيغ : التدوة الدولية حول تاريخ الأمازيغ، الجزء الأول، التاريخ القديم، الرباط، 2002، ص. 5 و 10 ؛ نفسه، "المورخ المغربي بين الحقيقة التاريخية والوهم الإيديولوجي"، نفس المرجع، ص. 29-30، 34، 41 ؛ محمد اللبار، إفريقيا الوندالية بين الحملات اللينزنطية والثورات المورية 429 - 534م، فاس، 2003، ص. 4؛ محمد العيادي، "المدرسة التاريخية المغربية الحديثة: الإشكاليات والمفاهيم"، في "البحث التاريخي بالمغرب"، الدار البيضاء، 2005، ص. 9-12؛ حليلة غازي - بن ميس و الحسن يودرقا، "تاريخ شمال إفريقيا القديم: رؤية منهجية"، في "أضواء جديدة على تاريخ شمال إفريقيا القديم وحضارته، الرباط، 2007، ص. 11 و ما يليها؛ عبد العزيز أكرير، تاريخ المغرب قبل الإسلام. الممالك المورية الأمازيغية قبل الإحتلال الروماني (قراءة جديدة)، الدار البيضاء، 2007، ص. 174.

واليوم وقد مر على استقلال المغرب أزيد من نصف قرن، وبعدها تم إدراج مادة تاريخ شمال أفريقيا القدامى ضمن مقرراتنا الجامعية منذ ما ينيف عن ربع قرن، و مر على إنشاء المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث ما يناهز أكثر من عشرين سنة¹، نتساءل هل مازال لهذا الخطاب الذي لم تفتأ تردده بعض الأعلام المغربية ما يبرره، وهل يتعلق الأمر فعلا بعدم اهتمام أم بقلق وحيرة حول مصير هذه المادة الدراسية الحيوية؛ خاصة إذا علمنا أن المساهمات المغربية في تزايد مستمر منذ سنة 1956 على الأقل²، وأن هذا الاهتمام لم يعد يقتصر على التاريخ والآثار وحدهما، بل تعداهما ليشمل مجالات أخرى كالشعر والقصة بشقيهما المروي والمصور³، فضلا عن استعمال أسماء الأماكن والأعلام القديمة في فضاءات ثقافية و ترفيهية و تجارية⁴.

مما لا شك فيه أن هناك اليوم احتلالا في التوازن بين الإنتاج الوطني والإنتاج الأجنبي في هذا المجال، وهذا الاحتلال نجد له جذورا في العصور السابقة، إذا ما قارنا الإرث الإغريقي - اللاتيني بالإرث العربي الوسيطى. وبحلول القرن التاسع عشر ظهرت كتابات فرنسية وإسبانية تناولت الموضوع بالدراسة، لكن النوايا الاستعمارية التي كانت وراء هذا الاهتمام، جعلت هذا الأخير يخضع للانتقاء في نوعية وطبيعة المواضيع والحقب المدروسة⁵.

¹ - حول تاريخ إنشاء المعهد و أهدافه، أنظر

Joudia Hassar Benslimane, *La recherche archéologique au Maroc durant deux décennies*, SMAP, 2001, p. 11-12 ; Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine : *Dix ans de formation et d'Archéologie et du Patrimoine*, Rabat, Les Belles couleurs, 1997, 41p.

² - حول هذا الموضوع، أنظر: عبد العزيز بل الفايذة وسعيد البوزيدي، بيبليوغرافيا المغرب القدامى بأفلام مغربية، البحث التاريخي، العدد 2، الرباط، 2004، ص. 92 - 114.

³ - أنظر أعمال :

Abdellatif Jebari, *Volubilis : théâtre intérieur*, Tanger, 1979, 42 p. : couv. ill. ; Jamila Lahlou, *Jugurtha ou le refus : roman historique*, Casablanca, 1989.- 175 p. ; *Histoire du Maroc en bandes dessinées*, sous la direction de Mohammed Maaouzzi, Rabat, 1993.- 3 vol. en coul. ill. - vol. 1 (= 125 p.) + vol. 2 (= 147 p.) + vol. 3 (128 p.)

⁴ - منبت أو مهرجان ويلي، معرض جوبا، باخرة بانانصا، حافلات تنجيس أو طنجيس مثلا

⁵ - حميد عرايشي، المغرب القديم في الإسطغرافيا الحديثة و المعاصرة، ج2، الفصل 3: تاريخ و اسطغرافيا، ص. 734 - 895 (أطروحة مرقونة). وقد سبق لنا الاهتمام بهذا الموضوع في أطروحة السلك الثالث التي قدمناها سنة 1993 تحت إشراف دة . مونيكا كلافيل ليفيك بعنوان :

Le Maroc antique dans l'historiographie contemporaine, 2 vol.

وإذا كان، وكما يقال، كل زائر مصر إلا و يحمل معه تواريخ هيرودوتس، فإن الوضع بشمال أفريقيا يختلف تماما؛ ذلك أن المصادر تعددت بتعدد النوايا والأهداف:

فالبعض تأبط "حرب يوغرطة" لساوستيوس، والبعض الآخر تأبط "اعترافات" القديس أوغسطينوس، وطرف ثالث كتاب جوزيف فلافيوس، وغيرهم كتاب "العبر" لابن خلدون... ومن هذا المنطلق، فإن تعدد المقاربات والصور بتعدد النوايا والأهداف، على الرغم من أنها كانت كلها تصب في اتجاه واحد، هو البحث عن المشروعية التاريخية، أبانت عن تعدد زوايا النظر إلى الموضوع.

لقد ازدادت الهوة اتساعا بين الإنتاج المغربي والإنتاج الأجنبي بعد الاستقلال كما تبرهن على ذلك المنشورات الصادرة خلال هذه المرحلة، خاصة وأن الإنتاج الذي كاد ينحصر سابقا في الإصدارات الفرنسية والإسبانية، تعددت مراكزه وتنوعت لتشمل اللغة الإيطالية والألمانية والإنجليزية والروسية والبولونية والعبرية... على الرغم من استمرار الهيمنة الفرنسية والإسبانية كما ونوعا¹.

ومما لاشك فيه أن هذا الارتفاع المتزايد والمتنوع للإنتاج ومراكزه - بالإضافة إلى ما نشر خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين - قد جعل مواكبة البحث بالنسبة لنا نحن المغاربة عملية صعبة وغير يسيرة إن لم نقل مستحيلة². لأن الاستقلال لم يكن تاما، الشيء الذي جعل

1- أنظر حول هذا الموضوع ح. عرايشي، الأطروحة أعلاه، الجزء الأول.

2- يتضح ذلك من خلال البيبليوغرافيا المعتمدة والتي غالبا ما تكون قديمة و أحيانا متجاوزة كليا أو جزئيا بحيث يتراوح تقادماها في غالب الأحيان ما بين عشر سنوات و أزيد من ثلاثين سنة . أنظر في هذا الباب بوجه خاص أعمال محمد بوكبوط، مرجع سابق، و محمد العميم، "القبيلة و المجال في تاريخ المغرب القديم. نموذج علاقة الرحل بالمستقرين"، مجلة كلية الآداب بالجديدة، العدد 8-9، 2004، ص. 89 - 103 و أعشي مصطفى، نقاش معاهدات السلام بين الباكوات الأمازيغ والرومان في موريطانيا الطنجية، 2004 و عبد الرزاق العسري، "جوانب من علاقة روما ببعض القبائل الخارجة عن مجال النفوذ (نموذج الباكوات)"، في "المجالات الحدودية في تاريخ المغرب"، المحمدية، 1999، ص. 21 - 36 و محمد اللبار، "حول مقاومة شرق المغرب للأهداف التوسعية الرومانية خلال منتصف القرن الأول للميلاد"، في "وقفات في تاريخ المغرب : دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، الدار البيضاء، 2001، ص. 275 - 303 و عبد الرحمان البيوي، "علاقات قبائل موريطانيا الطنجية بالسلطة الرومانية"، مجلة كلية الآداب، بني ملال، ع 3، 2001، ص. 41 - 56 و ماجدة بنحويون، "الممالك المحلية الأمازيغية : محاولة لمعرفة جذورها وامتدادها"، مجلة كلية الآداب بالجديدة، العدد السابع، 2002، ص. 7 - 42 ؛ نفسها، "الممالك المحلية الأمازيغية: العلاقات المورية النوميديّة و تورط الملوك المحليين في الصراعات الرومانية"، مجلة كلية الآداب بالجديدة، العدد العاشر، 2006، ص. 49 - 59 و ماجدة بنحريبط، "المقاومة المورية للإحتلال البيزنطي بين 533 - 548 م"، في " المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات"، 2005، ص. 97 - 111 و محمد شقير، تطور الدولة في المغرب. إشكالية التكون

إنتاجات المناطق التي ظلت تحت سيطرة الاستعمار (نموذج سبتة ومليلية) يستمر صدورها باللغات الأجنبية ويتعذر علينا أحيانا التعرف عليها، كما أن الاستقلال لم توأكه مغربة الأطر وخاصة في مجال البحث الأثري، وكانت الوثيقة التي أصبحت منذ الحرب العالمية الثانية تحتل مكانة هامة إلى جانب الوثيقة الأدبية، وأصبح البحث بدونها في مجال التاريخ القديم يكاد يكون أحيانا دون فائدة كبرى. إذا أضفنا إلى ذلك، أن حدود المغرب القديم كانت تتجاوز أحيانا حدوده الشرقية الحالية، وأن إنشاء معهد الآثار ببلدنا، وإدراج مادة تاريخ شمال أفريقيا القديم ضمن مقررات التعليم بجامعاتنا — رغم ما رافق ذلك من نقائص وصعوبات منذ البداية — حديثي العهد، اتضح لنا أن عملية استعادة التوازن المعرفي هي عملية معقدة ومتداخلة الخطوط والأبعاد، ورهينة بمجموعة من العناصر التي تتجاوز مجرد الاهتمام الفردي أو الجماعي بالموضوع.

ويزيد الأمر تعقيدا غياب أعمال تهم بحمل تاريخ المغرب القديم بمفرده، ومن شأنها أن تمكن الطالب والباحث والمهتم من التعرف على ما أنجز حول موضوع أو مجموعة من المواضيع المتعلقة بالمنطقة¹. كذلك الشأن فيما يتعلق بالإنتاج، فإذا استثنينا المنشورات الجامعية والتي لم تعد تحتل مكانة هامة إلا في السنوات الأخيرة وما يزال توزيعها محدودا، فإن الدورية الوحيدة التي تصدر بالمغرب و يلجأ إليها الباحث المغربي هي "النشرة الأثرية المغربية" التي تصدر منذ سنة 1956 باللغة الفرنسية²، فضلا عما تعاني منه من خلل في إصدار دوريتها قد يصل أحيانا إلى عقد بكامله بين تاريخ الإيداع وتاريخ النشر، هذا في الوقت الذي تصدر فيه بعض الدوريات المتخصصة في تاريخ وآثار شمال أفريقيا القديم، وتعد لقاءات علمية بشكل منتظم حول الموضوع سنويا خارج أرض الوطن، وقلما نجد لها حضورا في مكتبتنا رغم ارتفاع نسبة المساهمات المغربية فيها منذ أواخر الثمانينات من القرن الماضي³.

والتمركز والهيمنة : من القرن الثالث ق.م. إلى القرن العشرين، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2002؛ نفسه، المؤسسة العسكرية بالمغرب من القبيلة إلى العصرية، الدار البيضاء، 2007 (2008)، 278 ص. و محمد التازي سعود، صفحات من تاريخ المغرب القديم، الدار البيضاء، 2008، 230 ص.

¹ - أنظر حول هذا الموضوع ح. عرايشي، الأطروحة، الجزء الأول، مقدمة، صص. 13 - 14

² - من الملاحظ أن الأعداد الأخيرة تتضمن بعض المقالات بالعربية لكل من أحمد سراج و محمد مجدوب: 2002 و

2004 (Bulletin d'Archéologie Marocaine, XIX, 2002, p.1-19; Id., XX, 2004, p.1-16)

³ - أنظر Antiquités Africaines ; Histoire et archéologie de l'Afrique du Nord ; Africa romana

ولعل هذه المعطيات كفيلة بتوضيح مدى تعدد وتنوع المشاكل التي تحول دون تحقيق توازن معرفي حقيقي ببلدنا وحول بلدنا.

فمنذ العصر القديم إلى عصر الانترنت ومشاكلنا تتفاقم، فالموروث الأدبي القديم بالإغريقية واللاتينية لم يتم تجميعه أو فهرسته أو ترجمته أو التعليق عليه بكامله لحد الآن¹، كذلك الأمر بالنسبة للمصادر العربية الوسيطة² والدراسات الحديثة والمعاصرة.

تعود الدراسات الأولى حول تاريخ المغرب إلى القرن الثامن عشر³، وبالنسبة للإنتاج المغربي، تشكل نهاية القرن التاسع عشر (مع الناصري) الانطلاقة التي تلتها أعمال أخرى خلال النصف الأول من القرن العشرين (محمد محيي الدين المشرفي)، إلا أنها مع ذلك ظلت محتشمة على مستوى الكم، ومتردة على مستوى الخطاب، إلى غاية الاستقلال، حيث ستشهد ارتفاعا تصاعديا وتنوعا إن على مستوى لغة النشر (عربية، فرنسية، إسبانية)، أو على مستوى الكم أو المنهج، أو على مستوى النوع حيث تأرجحت المحاولات بين التاريخ العام، والدراسات التي لا تتناول القدم إلا من باب التمهيدات، والكتب المدرسية، والمونوغرافيات المحلية، وأعمال الترجمة والتقارير والدراسات الأثرية، والأطروحات الجامعية، والدراسات التاريخية النقدية، والمقالات التي لا تتناول إلا مواضيع أو أحداثا خاصة ومحدودة زمنيا، أو من حيث الأهداف (الرد على الكتابات الكولونيالية في مرحلة أولى والكتابات الوطنية في مرحلة ثانية)، لكن على الرغم من ذلك، يبقى من الصعب أن نتحدث عن تراكم كمي وكيفي في مجال التاريخ القديم، الشيء الذي يجعلنا نعتبر هذا الإنتاج غير كاف للوقوف على واقع البحث التاريخي المغربي وآفاقه المستقبلية. وإذا كانت لا همنا ضالة الإنتاج بقدر ما يهمنا محتواه ونوعية الخطاب الذي ينطق به منذ ما يزيد عن نصف قرن، فما تجدر الإشارة إليه هو أن أي خطاب لا يمكنه أن ينطلق من

¹ غياب فهراس تتضمن النصوص القديمة كلها (الأعمال المتوفرة اليوم لانفي بالغرض المطلوب الشيء الذي يفرض على الباحث البحث عنها في المراجع وهي عملية صعبة و تتطلب وقتا كبيرا وحذرا شديدا)، أنظر : ح. عرايشي، الأطروحة، الجزء الثاني، الفصل الثاني، تاريخ و مقاربات، مقاربات أدبية، ص. 676 - 678 .

² - أنظر :

Ahmed Siraj, *L'image de la Tingitane. L'historiographie arabe médiévale et l'antiquité nord-africaine*, Paris : De Boccard ; Roma : L'ERMA, 1995, pp. 31 - 133

³ -L. De Chenier, *Recherches historiques sur les Maures, et histoire de l'empire de Maroc*, Paris : Imprimerie Polytype, 1787, 3 vol

العدم، ومن هذه الزاوية يتبين أن الإصدارات المغربية، مهما اختلفت لغتها ومراكزها، لا يمكنها أن تشكل قطعة مع الماضي خاصة إذا علمنا أنه ليست هذه الإصدارات نفس القيمة العلمية، وأن هناك تطابقا وتجانسا، إن لم نقل اجترارا ونقلًا حرفيا أحيانا، في محتواها، وأن المعطيات في حد ذاتها لا تعرف تجديدا هاما. فعلى مستوى المنهج، وبخلاف الدراسات و الأبحاث الغربية، فإننا في أغلب الأحيان، إذا ما استثنينا بعض المنشورات الجامعية التي تهم مواضيع جد محدودة والتي لم تعرف انتشارا كبيرا إلا ابتداء من أواسط التسعينات من القرن العشرين، لا نجد في هذه الكتابات معرفة مدققة لا بمحتوى النصوص الأدبية القديمة (الإغريقية واللاتينية) التي تعرض لها أحيانا بالتعريف أو بالنقض أو "النقد"، ولا بتاريخها أو تعاقبها الزمني، ولا بنتائج الأبحاث الأثرية أو العلوم المساعدة، ولا بمحتوى الدراسات الحديثة والمعاصرة أحيانا. كما نجد هذه المؤلفات غالبا ما تشكو من توجه إيديولوجي وأخطاء واختلال في التوازن المعرفي كاجترار أطروحات تجوزت منذ ما يزيد عن أربعين سنة. فهي إما تسكت عن الخوض في موضوعها مكتفية بنقل ما جاء فيها دون نقده نقدا علميا، وإما تتجاهلها أو ترفضها بالجملة دون أن تتمكن من الاستغناء عنها.

لقد انصب اهتمام الباحثين والمهتمين بتاريخ المغرب عامة — منذ ما يناهز ثلاثة قرون — على مواضيع يمكن حصرها في المحاور الآتية :

- أ - طبيعة المجال ومدى تأهيله لقيام حضارة وتحقيق وحدة سياسية.
- ب - المعطيات الجغرافية الموروثة عن المؤلفين القدامى ومدى مطابقتها لنتائج الأبحاث الأثرية.
- ج - أصول السكان الأهالي وطبائعهم ومدى مساهمتهم في تطور الحضارة الإنسانية.
- د - تاريخ التوسع الفينيقي - القرطاجي وأسبابه وطبيعته وأهدافه وحدوده ونتائجه.
- هـ - تاريخ بزوغ الكيانات السياسية المحلية المنظمة على النمط الملكي وظروفها ومراحل تطورها ومختلف مواقفها من القوى المجاورة : قرطاجة وروما بوجه خاص .
- و - أهم مراحل الاحتلال والتوسع الروماني - محالا وعمقا - ونتائجه وردود فعل الأهالي .
- ز - تاريخ عبور الوندال لمضيق جبل طارق وأسبابه، وتحديد عددهم والطريق الذي سلكوه أثناء قيامهم بهذه العملية، والمجال الذي استولوا عليه وظل تحت سيطرتهم، وطريقة إدارته، وعلاقاتهم مع الأهالي طيلة وجودهم به .
- ح - الصراعات بين الوندال والبيزنطيين ووضع شمال أفريقيا تحت سيطرة هؤلاء وعلاقاتهم مع الأهالي

ما هو نصيب مساهمة الباحثين المغاربة إذن في النقاش الذي أثارته هذه المحاور بالنسبة للمغرب ؟ وما الذي يميز كتاباتهم الصادرة بعد الاستقلال عن غيرها ؟ وما هي الصورة التي تعكسها ؟ إن المتتبع للكتابات التي اتخذت من تاريخ شمال أفريقيا القدم عامة والمغرب خاصة موضوعا لها، يلاحظ أن نسبة المساهمات المغربية في تزايد مستمر¹، كما يمكنه إذا نظر إلى تلك الكتابات بعين فاحصة أن يميز فيها بين أربعة أصناف من الدراسات المغربية الصادرة منذ خمسة عقود، بدون إدخال أعمال الترجمة والبيبلوغرافيا والتقارير الأثرية:

الصف الأول: اهتم بنقد و، أو تقدم حصيلة الكتابات الكولونيالية وحاول الرد عليها أحيانا، والتنبيه إلى أهميتها، والإصرار على ضرورة قراءتها ونقدها نقدا علميا رغم النوايا التي تحكمت في إنتاجها، إلا أن حصره لمجموع الإنتاج فيما اصطلح على تسميته بالإنتاج الكولونيالي دون غيره، جعله لا يعكس دائما الوجه الحقيقي لإصدارات المرحلة التي تتميز بالتعدد والتنوع والاختلاف، الشيء الذي انعكس سلبا على بعض الكتابات المغربية التي ظلت تجتر مضامين الأعمال التي لم تشملها العملية²، وتعيد استهلاك أطروحات نعوم شلوز ومارسيل سيمون و ليونيل فوانو فيما يتعلق باليهود و اليهودية بالمغرب³

¹ - لم يعد الأمر حكرًا على الباحثين في التاريخ و الآثار فقط، بل تعداهما إلى تخصصات أخرى كالعلوم القانونية والسياسية و الفلسفة و علم الاجتماع و الآداب: علال الفاسي، نفس المرجع، 1972، محمد شقير، نفس المرجع، عبد الكريم غلاب، نفس المرجع، عبد السلام بن ميس، مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة الأمازيغية القديمة (دراسة في تاريخ العلوم الصورية وتطبيقاها)، الرباط، 2005، 245 ص.

² - أنظر هاشم العلوي القاسمي، المرجع السابق، 1995، ص. 132 - 133؛ أحمد سراج، المرجع السابق، 1995، ص. 219 - 220 (بالفرنسية)، مارية داداي، تاريخ مدينة وجدة من التأسيس إلى سنة 1830 م، وجدة، 2004.

الجزء الأول، ص. 39 - 41

³ - أنظر حول هذه الأطروحات، جون ماري لاسير، أنرك كوثالبس كرايوتو و شعون ليفي

Jean-Marie Lassere, *Vbique populus : peuplement et mouvements de population dans l'Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères* (146 av. J.-C. - 235 ap. J.-C.), Paris : CNRS, 1977, p. 426 ; Enrique Cravioto Gozalbes, Los judios en Mauritania Tingitana, *Studi Magrebini*, XI, Napoli, 1979, p. 138, 144 - 148; Simon Levy, *Essais d'histoire et de civilisations judéo-marocaines*, préface de Mohammed Chafik, Rabat : Centre Tarik Ibn Ziyad, 2001, pp.11-12, 36, 64, 69, 84, 97 et p. 143-144

الصف الثاني : يغلب عليه طابع السرد، واعتنى ببسط الآراء والأطروحات و نقيضها أحيانا، أكثر مما اهتم بمجادلة أصحابها.

الصف الثالث : اكتفى بالاجترار والنقل والتكرار وعكس بعض الأدوار، مع ما يحمله هذا النهج من سلبيات، وتمثله بوجه خاص أعمال الحسن السائح وعبد العزيز بنعبد الله و ابن عزوز حكيم. الصف الرابع : وهو النادر، يتميز عن غيره بطرح الإشكاليات، وتوظيف المصادر والتشكيك في صحتها وما ينتج عن ذلك من تأويلات، وهو الصف الذي تمثله بوجه خاص أعمال محمد مجدوب، ومحمد المبكر وحليمة غازي بن ميس و أحمد سراج .

ومن حقنا أن نتساءل اليوم عما إذا كانت الصورة التي نقدمها عن أنفسنا هي أقرب إلى الموضوعية من تلك التي قدمها وما يزال يقدمها عنا غيرنا ؟ وهو سؤال يفسح لنا المجال بالضرورة إلى طرح أسئلة أخرى أهمها :

هل يمكن الحديث — فيما يخص التاريخ القديم — عن بداية تراكم كمي وكيفي في مسار البحث التاريخي المغربي بقدر كاف لإصدار حكم على واقعه وتعرف آفاقه ؟ وهل يحمل الإصدارات لها قيمة علمية ؟

من مميزات المرحلة المدروسة التي تمتد من استقلال المغرب إلى يومنا هذا (من 1957 إلى 2007 بالنسبة لموضوعنا)، ذلك التطور الظاهري على الأقل الذي عرفته الإصدارات المتعلقة بشكل مباشر وغير مباشر بتاريخ المغرب القديم سواء من حيث الكم أو من حيث المناهج أو من حيث الأهداف والتصورات. وقد ارتبط هذا التطور بتطور الأوضاع السياسية للبلاد عامة و الأبحاث الأثرية على وجه الخصوص¹. فمن حيث الكم، تدل الإحصائيات على أن هذه المرحلة شهدت ارتفاعا نسبيا على

¹ - أنظر: م. مقدون، "البحث الأثري حول المغرب القديم"، بحوث، عدد6، 1995، ص. 183 - 197، عمار أكراز و عبد العزيز الحيازي، "تاريخ البحث الأركيولوجي والتاريخي المتعلق بالمغرب القديم"، في "واقع البحث التاريخي.."، الدار البيضاء 2003، ص. 118 - 126؛ ح. عرايشي، الأطروحة، ص. 684 - 702؛ أحمد سراج، "البحث التاريخي المغربي الحديث: العهود القديمة"، في "البحث التاريخي بالمغرب"، الدار البيضاء، 2005، ص. 37 - 41

مستوى الإنتاج صاحبه تطور على مستوى الأهداف و التصورات، وتنوع على مستوى المناهج والمواضيع ومراكز الإسهامات¹.

هناك تطور و تحسن ملموس على مستوى المقاربات، تمثلا في انتعاش الدراسات التركيبية و النقدية ومراجعة الأطروحات و المستندات، وإعادة النظر في المعطيات الأدبية ونتائج الأبحاث الأثرية، خاصة بالنسبة للمغرب، بعد إدراج مادة تاريخ شمال افريقيا القديم ضمن مقررات التعليم العالي و إنشاء المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث في الثمانينيات من القرن الماضي².

أما من حيث الأهداف، فلقد شهدت هذه المرحلة "نهضة" سواء بشمال افريقيا أو بالشرق وأوروبا — إسبانيا و فرنسا على وجه الخصوص — تهدف إلى "مراجعة" أو "إعادة" صياغة وكتابة تاريخ البلدان المستعمرة سابقا، وتطالب بذلك، إلا أن هذه الحركة و هذا النشاط لا يعنيان بتاتا أنهما ليست محط أي اعتراض أو نقاش على الرغم من الحيوية التي أبداهما و ما يزال يديها بعض روادها. بعبارة أخرى، على الرغم من الاختلاف الذي عرفته هذه المرحلة، فإن هناك جملة من نقاط التشابه بينها و بين سابقاتها تؤكد على وجود استمرارية، و تمنع بذلك من الحديث عن قطيعة مع الماضي أو تحول جذري في تصور وكتابة تاريخ شمال افريقيا عامة والمغرب القديم خاصة³.

وتتحلى هذه الاستمرارية في الكتابات المغربية بشكل عام فيما يلي :

أ — على مستوى التحقيق: الاستمرار في اجترار و تكريس نفس التقسيمات المتداولة سابقا مع ما تحمله من سلبيات. وتفيدنا نظرة سريعة للدراسات الأبحاث التي هم تاريخ المغرب القديم بأن أغلب الباحثين — مؤرخين وأثرين، مغاربة و أجانب — غالبا ما يستعملون تقسيمات متعددة، بحيث إن بعض التحقيقات تعتمد الأسر أو الأفراد (عهد يوبا الثاني، أو المرحلة الجوية، عهد أغسطس، عهد الفلافيين أو عهد السيفريين أو المرحلة الكلاودية أو الماقبل كلاودية)، أو هم فترات اختلف الباحثون

¹ - بخلاف المراحل السابقة حيث ظل الإنتاج حكرا على الأوروبيين عامة والفرنسيين منهم على الخصوص، عرفت هذه المرحلة تنوعا ملموسا على مستوى مراكز الإسهامات وارتفاع نسبة الباحثين الجامعيين المغاربة المهتمين بتاريخ شمال افريقيا أو المغرب القديم، خاصة ابتداء من الثمانينيات من القرن العشرين وهي الفترة التي تزامنت مع إدراج مادة تاريخ شمال افريقيا ضمن مقررات التعليم العالي بالمغرب و إنشاء معهد علوم الآثار و التراث بالرباط

² - أنظر عبد العزيز بل الفايذة و سعيد البوزيدي، المرجع السابق، 2004

³ - أنظر حميد عرايشي، الأطروحة، الجزء الثاني، تاريخ واسطغرافيا، ص. 734 - 1041.

أحيانا في تسميتها أو تحديد بداياتها ونهاياتها (المرحلة الموريتانية أو الموريطانية، أو المورية أو الأطلسية أو عهد الحماية أو العهد الملكي أو العهد الهلنستي أو المرحلة البونية الجديدة أو مرحلة بونية — هيلينية... الخ) أو بعض التحقيقات التي ظلت استعمالها محدودة (ما قبل العهد الفينيقي: محمد مجذوب)، وهي تقسيمات يمكن حصرها في صنفين :

الصنف الأول يشمل التقسيمات البسيطة، وهي الأكثر تداولاً، وتميز فيها بين ثلاثة نماذج :
 — نموذج التقسيم الخماسي، ويتضمن المراحل الآتية: "مرحلة فينيقية"، و"مرحلة بونية" أو "قرطاجية"، و"مرحلة رومانية" أو "رومية"، و"مرحلة نندالية" و"مرحلة بيزنطية". ويمثل هذا التقسيم أكثر من 50 بالمائة من التحقيقات المستعملة. وعلى خلاف التحقيقات الأخرى فإن هذا التقسيم يقدر — ظاهرياً على الأقل — الرومان مثلما يقدر سابقهم الفينيقيين و القرطاجيين ولاحقهم الوندال والبيزنطيين، إلا أن استعماله لا يعني بتاتا أنه مجرد من أي اعتراض. فإلى جانب كونه يخنزل تاريخ المغرب في سلسلة متوالية من الغزوات والإحتلالات حيث يصبح كل محتل يطرد الآخر، فإن استعماله يستدعي ملاحظات إضافية، وعلى رأسها المستوى التاريخي، إذ أن استعمال هذه التقسيمات يفرض وضع قطعة مطلقة بين مرحلة وأخرى، والتغاضي عن المستعمرين أو المحتلين، وبالتالي إقرار المعادلة الآتية: احتلال أو استعمار يساوي ثقافاً مطلقاً أو إبادة تامة وشاملة للأساس. ولعل هذا ما تعكسه تصريحات مجموعة من المؤلفين المغاربة¹، وهو خطاب نجده أيضاً عند بعض مؤلفي المرحلة الكولونيالية أمثال هنري دو لامارتينيير و أفيزاك ولاينادي و شركائه وإرنست ميرسي.

— نموذج التقسيم الثلاثي، ويعتمد التحقيب الآتي: "مرحلة ما قبل الرومان" أو "ما قبل الروميين"، "المرحلة الرومانية" أو "العهد الرومي"، و"مرحلة ما بعد الرومان". هذا التحقيب السائد في تصور الأوروبيين لتاريخ روما الذي كرسه أقلام مغربية أحيانا بشكل معكوس (غالبا ما يتم التركيز في هذه

¹ — وعلى رأسهم محمد محي الدين المشرفي الذي كتب يقول: " لم يخذ المغاربة حذو القرطاجيين في الشؤون المادية فحسب، بل اقتفوا آثارهم في سائر الميادين الأخرى. (...) قلدوهم في كل شيء حتى كادت أن تبطلهم تلك الحياة الجديدة"، ونفس الخطاب ورد عند عبد الوهاب بن منصور: "أصبح الإمتزاج تاماً بين العنصرين [الفينيقي والبربري] وكونوا وحدة في كل شيء وصار من العسير التفرقة بين مغربي من أصل فينيقي ومغربي من أصل بربري كما حدث بين العرب والبربر فيما بعد"، وهو ما ذهب إليه أيضاً عبد الكريم غلاب في قوله " تأقلمت [قرطاج] مع المغرب والمغاربة، وأصبح من الصعب التفريق بين المغربي والفينيقي".

الأخيرة على "المرحلة الرومانية" لإبراز الاختلاف والدور السلبي الذي تكون قد لعبته روما في تاريخ المنطقة مقارنة مع المرحلة" الما قبل رومانية" مع الفينيقيين و المرحلة "ما بعد رومانية" مع العرب¹، ويقوم على "أمثلة" فترة الاحتلال الروماني، وخاصة العهد الإمبراطوري الأول وجعلها نموذجاً للمجتمعات المحتلة و ذلك من خلال مقابلتها مع الصورة السلبية لمجتمع ما قبل و ما بعد هذا الاحتلال. — نموذج التقسيم الثنائي و يعتمد المعيار الديني بالأساس: "مرحلة ما قبل المسيح"، و"المرحلة المسيحية"؛ أو "مرحلة ما قبل الإسلام" أو "الجاهلية"، و"المرحلة الإسلامية". وقد دأب بعض المؤرخين المغاربة على استعمال "ما قبل الإسلام" أو "الجاهلية" مقابل "الفترة الإسلامية" للدلالة على كل المراحل التي سبقت ظهور الإسلام بالمنطقة، إلا أن عيوب هذه التقسيمات التبسيطية والتي تعتمد المقياس الديني دون غيره يمكن الاستدلال عليها. و مع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن هذا التقسيم في الاسطغرافية المغربية لا يعني بالضرورة قيام تعارض بين هاتين المرحلتين، بل غالباً ما تستهدف في هذا التعارض "المرحلة الرومانية وما يليها"، في الوقت الذي تحظى فيه "المرحلة الفينيقية أو القرطاجية" بمكانة مميزة².

الصف الثاني ويشمل التقسيمات المركبة، وهي قليلة التداول إن لم نقل نادرة لا تهم إلا إحدى الفترات القديمة من جهة، ومن جهة أخرى تستعمل على المستوى المحلي أو الإقليمي فقط، ويمكن أن نميز فيها بين ثلاثة نماذج:

— نموذج "أ": مرحلة ليبية - فينيقية أو فينيقية - ليبية، وتستعمل بالنسبة لتاريخ قرطاج أو مجموع شمال إفريقيا إبان الوجود الفينيقي.

— نموذج "ب": مرحلة ليبية - بونية أو بونية - موريطانية، وتستعمل بالنسبة لموريطانيا أو جزء منها، وهي مرحلة اختلف في تحديد بدايتها ونهايتها.

— نموذج "د": الفترة المغربية الفينيقية " أو الفترة المغربية الرومانية"، ولم نثر على استعمالها إلا عند مؤلف واحد في العقد الأخير من القرن العشرين هو محمد حنداين، الفكر المغربي (ملاحظات أولية) في إفريقيا الشمالية (المغرب)، دراسات حول التاريخ والثقافة، 1996، ص. 4-5³.

¹ - أنظر الجدول الإجمالي المرفق.

² - أنظر نفس الجدول.

³ - للمزيد من التفاصيل، أنظر: حميد عرايشي، الأطروحة، الجزء الثاني، الفصل الأول، تاريخ وتحقيقات، ص. 626 — 673. و الملاحظ أن الموضوع أصبح محط نقاش لدى بعض الباحثين المغاربة، أنظر: حليلة غازي بن ميس، "آثار

ب — على مستوى المقاربات، نلاحظ إلى جانب قلة الأعمال التي تعتمد المنهج العلمي في التحليل، غياب الاتفاق على أسماء بعينها وتوحيدها، ومن ذلك مثلا استعمال قزال، غزيل، كسيل، كزيل، اكصيل... كمقابل لاسم صاحب كتاب التاريخ القديم لشمال افريقيا ؛ وبوقو أو بوخوس أو باخوس أو بوكوس أو أبوقس أو بقشيش كمقابل لاسم ملك موريطانيا صهر يوغرطة ؛ وإطلاق لفظ زعيم، أوقائد أو أمير أو شيخ على ممثلي الباكواتيين. وتداول كلمات- مفاهيم تؤدي أحيانا معاني معكوسة إذا ما قورنت مع نوايا صاحب الخطاب، مثل استعمال كلمات تفيد التمرد أو العصيان أو انعدام الأمن (insurrection rebellions, troubles,) أو ألفاظ أخرى مثل (insécurité, incursions, soulèvement) تزيل طابع الشرعية بالنسبة لخطاب يهدف صاحبه إلى إبراز المقاومة مثلا، وتشكل بذلك، عن غير قصد، استمرارا للخطاب الإغريقي اللاتيني القديم و الفرنسي الكولونيالي الحديث¹، أو اللجوء إلى استعمال مصطلحات أو "تجميعات" قد لا نجد لها صدى أو دعما تاريخيا مثل: انتفاضة عارمة، كفاح وطني، حركات استقلالية، ثورات استنكارية تحررية، مقاومة شعبية و، أو مستديمة أو مستمرة أو دائمة²، هذا وتجدر الإشارة إلى أن هذه المصطلحات - المفاهيم لم تنج هي الأخرى من الإستعمال المعكوس أو المضاد بين الكتابات المغربية و الأجنبية. ويكفي في هذا الباب المقارنة بين توظيف مسألة "المصلحة العليا للبلاد" و "المقاومة". والمقارنة بين ميشيل كوتيليني من جهة و جاك كاني

الفينقيين و القرطاجيين بمملكة المغرب القديم بين البحث عن الواقع والجري وراء السراب"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ع 26، الرباط، 2006، ص. 72 و 74 ، أنظر أيضا أعمال محمد كبري علوي

¹- أنظر مثلا على ذلك

Mohamed Sounni, La présence Romaine en Maurétanie Tingitane et son influence sur l'économie, *Revue des Lettres et Sciences Humaines*, (Kénitra), Numéro 6, 2006, p.61 – 67 ; Idem, La situation économique de la Tingitane au IIIème siècle, in « *Nouvel éclairage sur l'histoire et la civilisation de l'Afrique du Nord Antique* » : *Hommage offert au Professeur Mustapha Moulay Rchid*, 1^{ère} édition, Ribat : Maktabat Dar Assalam, 2007, pp. 43-48 ; Fatima-Zohra El Harif, Claude I : l'annexion de la Maurétanie, monnayage de guerre et de nécessité, in « *L'Africa romana* », *Atti del XVI convegno di studio, Rabat 2004*, (Roma 2006), pp. 2082 & 2088

²- كما جاء عند محمد اللبار، افريقيا النوندالية...، 2003، صص. 33، 54-55، 82، 121، 191 – 192، 198 ومصطفى أعشي، مراجع سابقة؛ وماجدة بنحيون، "انتفاضة القبائل الأمازيغية ضد الرومان"، في "إضواء جديدة على تاريخ شمال افريقيا القديم وحضارته"، مرجع سابق، 2007، صص. 267 – 306.

و محمد شقير و حليلة غازي بن ميس من جهة أخرى¹. كما يلاحظ المتتبع بعض المبالغة في استغلال صمت النصوص دون احتراس باستعمال منطق استدلاي، يتم فيه استعمال الصمت والفراغ للدفاع أحيانا عن الشيء وضده، ولنا في بعض النصوص المستقاة من بعض الأعمال أمثلة على ذلك، فالعروي عند تطرقه إلى غياب النصوص وغياب الآثار المادية يصرح بما يلي: "لا نقول إن سكوت الوثيقة يدل على عدم وجود أي مشروع توحيد و تحريري في ذهن يوغرثن، بل نقول إن الوثيقة المكتوبة، وثيقة رومانية، لا يمكن أن تسوق الأخبار من وجهة نظر مغربية"²، ويقول اللبار في معرض تعليقه على سكوت المصادر عن وجود صراع بين الرومان والباكواط: "... ويستدلون على ذلك بكون المصادر لم تسجل أي صراع مسلح بين الرومان والباكواط على طول امتداد هذه الفترة متناسين أن هذه المصادر لم تكن تؤرخ أصلا لقبيلة الباكواط من جهة، و أن سكوتها من جهة ثانية لا يمكن أن يعتد به كدليل على عدم نشوب صراعات مسلحة بين الطرفين (...)"، لكنه يؤكد عكس ذلك تماما في سياق آخر حيث يقول: "وما يزكي في نظرنا هذا الاستنتاج كون المصادر لم تسجل أي صراع مسلح بين الوندال و بين الباكواط و حلفائهم من المورين في السنوات الأولى من دخول هؤلاء الوندال إلى إفريقيا. بل أكثر من ذلك ليست هناك ولو إشارة ضمنية في هذه المصادر تفيد أن الوندال قد اصطدموا مع هؤلاء الباكواط، المورين طيلة عهد الملك جنسريق 429-477"³، وهذا عبد العزيز أكرير يتساءل قائلا: "لماذا لا يكون هذا الصمت دليلا على فترات اضطراب و مقاومة مورية مستمرة، خصوصا إذا ما عرفنا أن المؤرخ الروماني كان يبحث ويسجل أساسا إنجازات و انتصارات الأباطرة والجيش

¹ -Michelle Coltelloni-Trannoy, *Le royaume de Maurétanie sous Juba II et son fils Ptolémée*, Paris : CNRS, 1997, p.59 & p. 107 ; Jacques Cagne, *Nation et nationalisme au Maroc*, Rabat : Edition La Porte, 1988, p. 42 ; Halima Ghazi Ben Maissa, *Encore et toujours sur l'assassinat du roi Amazigh Ptolémée*, *Hesperis Tamuda*, 1995, p. 31 ;

حليلة غازي بن ميس، "ملكة المغرب القديم أو بعض المسكوت عنه في تاريخ المغرب"، في "الأمازيغية في المغرب"، *نوافذ*، ع 17، 18، 2002، ص. 136 ؛ محمد شقير، *تطور الدولة في المغرب — إشكالية التكون والتمركز والهيمنة — من القرن الثالث ق.م. إلى القرن العشرين*، الدار البيضاء، 2002، ص. 134

² - عبد الله العروي، *مجلد تاريخ المغرب*، 1984، ص. 54.

³ - محمد اللبار، "الباكواط و تاريخ موريطانيا الطنجية"، في *المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات*، دجنير 4 و 5، 2003، 2005 ص. 82 و 89، وانظر أيضا، نفسه، *إفريقيا الوندالية بين الحملات البيزنطية والثورات المورية 429 و 534 م*، فاس، 2003، ص. 48 - 49 و ص. 122.

الروماني، وأن النقوش هي في مجملها نقائش رسمية تؤرخ للانتصارات والسلام الرومانيين¹ ليخلص إلى القول " وبهذا يكون الصمت دليلاً ضد نجاح السلام الروماني في موريطانيا الطنجية"²، ومن المفيد في هذا المجال الاطلاع على استنتاجات محمد مجدوب المتعلقة بالفراغ الأثري بالنسبة للقرن الثاني قبل الميلاد بموريطانيا، ومقارنته بالاستنتاجات المعاكسة لكل من عمار أكراز وعبد العزيز الخياري³. ويلاحظ أن استغلال بعض المصادر (مثل الرحلات مثلاً أو معطيات "تاريخ أغسطس") أو المراجع، يتم في كثير من الأحيان بدون تحفظ أو دون اعتبار الانتقادات الموجهة لها أو للفرضيات التي تتضمنها (مثل أطروحات التحصين أو التقابل الطبغرافي بين الجبل والسهل أو بين أنماط العيش (رحل مستقرون) الخ، واعتماد نفس المنطق (التقابل و التوازي) بشكل معكوس، واجترار نفس المستندات و استغلالها أحياناً بشكل معاكس⁴، وظلت بعض الأفلام المغربية تعتمد أساساً على استنتاجات ستيفان كزليل أو كابريل كامبس دون غيرها بالنسبة للممالك⁵، وأطروحات ماركرت راشي و مارسيل بنعبو دون غيرها بالنسبة لردود فعل الأهالي إزاء الاحتلال الروماني⁶ على الرغم مما طرحته هذه الأعمال من نقاشات حادة في أوساط الباحثين و ماطراً عليها من تعديلات منذ ظهورها قبل بداية الثمانينات. هذا فضلاً عن استمرار بعض الدراسين في اعتماد المناهج التقليدية التي كانت سائدة سابقاً، والتي تخضع لمنطق الانتقاء و الإقصاء، أو النقل دون نقد في استعمال المصادر واعتمادها⁶، ومنطق التقابل أو التوازي على مستوى التصوير، مع فارق واحد وأساسي، هو أنه إذا كان قد تم تطبيق منطق التقابل أو

¹ عبد العزيز أكرير، "مقاومة المورين للرومان بموريطانيا الطنجية ما بين 40 م - 285 م : دراسة إستطوريوغرافية"،

في المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات، دجنبر 4 و 5 2003، 2005 ص 28

² محمد مجدوب، "المغرب القديم والعالم المتوسطي"، حفريات مغربية، العدد الأول، 2001، ص. 27 - 28؛ نفسه، "موريطانيا من خلال المعلومات التاريخية الواردة في كتب الجغرافيين القدماء"، بحوث، عدد مزدوج، 12 - 13، 2005، ص. 173 - 177؛ نفسه، "أشواط من مقاومة أهل المغرب القديم في الفترة المورية"، في "المقاومة المغربية عبر

التاريخ أو مغرب المقاومات، مرجع سابق ...، 2005، ص. 141-142

Aomar Akerraz & Abdelaziz EL Khayari, Sur une amphore gréco-italique provenant du site de Rirha, *Nouvelles Archéologiques et Patrimoniales*, N°6, juin 2005, p. 8-9

³ أنظر الأطروحات التي يتقدم بها البعض بشأن الممالك مثلاً أو دور الفينيقيين مقارنة مع الرومان مثلاً

⁴ نموذج ما جدة بنحيون و محمد شقير .

⁵ عبد الرحمان اليوبي، محمد اللبار، مصطفى أعشي و عبد الرزاق العسري و حليمة غازي بن ميس مثلاً .

⁶ أنظر بوجه خاص أعمال الحسن السائح و عبد العزيز بنعبد الله و عبد الكريم غلاب.

الاختلاف في السابق غالبا في تصوير العلاقات الأمازيغية العربية أو للتمييز بين أعمال الفينيقيين والرومان، وتخصيص منطق التوازي للرومان والفرنسيين، أو العبرانيين والإيبيريين و الأمازيغ، فإن هذه المرحلة قد شهدت أحيانا عكس ذلك؛ وإلى جانب استمرار هذا النوع من التصوير، نجد لدى أغلب الباحثين - مغاربة وشرقيين على وجه الخصوص - تصورا معكوسا: فهم يطبقون منطق التقابل بين الرومان والأمازيغ، ويخصصون منطق التوازي للأمازيغ والفينيقيين و،أو العرب، مما تنتج عنه حتما مبالغة في التصوير تظهر بشكل واضح في تضخيم مظاهر "الشجاعة" و"الصبر" و"البطولة" و"الشهامة" و"الحماس" و"الكفاح" و"الصمود" و"المقاومة" لدى الأمازيغ، في مقابل المبالغة في مظاهر "الاستغلال" و"الجور" و"الغطرسة" و"الظلم" و"العنف" و"أعمال التخريب والتوحش" و"الاستبداد" و"الاضطهاد" و"القسوة" و"التعسف" لدى الرومان والوندال.

وفي اتجاه آخر، هناك استعمال منطق التوازي بالتركيز على مدى "الانسجام" و"التآخي" و"الوحدة" و"التفاهم" و"التفاعل" و"التشابه" في الظروف والمهام والأهداف والأصول والتقاليد والعادات واللغات، بين الأمازيغ والفينيقيين والقرطاجيين، والعمل على "أمثلة" هذا الطرف الأخير، وذلك بالمبالغة في الدور الحضاري الذي يسند له بشمال إفريقيا والتركيز على مزاياه ومفاخره دون الوقوف أو الالتفات إلى ما هو سلبى، على الرغم من قلة المادة المصدرية والخلافات التي ماتزال تطرحها قراءتها¹.

ومن هذا المنطلق، لا غرابة إذن، وعلى غرار المراحل السابقة، في أن تظل نفس المواضيع تقريبا، تشكل المحور الرئيسي خلال هذه المرحلة وأحيانا بنفس الوثيرة، وألا تمثل المراحل التاريخية الأخرى غالبا إلا مواضيع ثانوية². ولا عجب أيضا في أن يظل التصور العام لهذه الدراسات، شأنه شأن المراحل السابقة، مشوبا بنوع من المبالغة، كما يبرز ذلك بوضوح في الدور الذي حاول معظم مؤلفي المرحلة من المغاربة إسناده للأمازيغ والفينيقيين على وجه الخصوص، والإشادة به، وفي اتجاه معاكس، الموقف والتمثل السلبى للرومان، وذلك من خلال تصويرهم و تمثيلهم كعائق أمام كل تقدم وازدهار وقيام وحدة سياسية، واعتبار ذلك مظهرا من مظاهر "الامبريالية الغربية".

¹ - أنظر الخلافات التي طرحتها و ماتزال تطرحها نصوص الرحلات و نتائج الأبحاث الأثرية مثلا: حميد عرايشي، الأطروحة، الجزء الثاني، الفصل الثاني : تاريخ و مقاربات.

² - أنظر عن الدراسات الصادرة قبل سنة 1957، حميد عرايشي، الأطروحة، ج2، الفصل 3، ص. 734 - 895

وهكذا شكلت هذه المرحلة "انتعاش" ما اصطلاح على تسميته بالتاريخ "المضاد" أو "المعكوس"¹. فما كان يعتبر بالأمس "عائقا" أمام الوحدة أصبح اليوم "حاجزا" أمام التدخل الأجنبي، وما كان يعتبر "خطأ" أو "سهوا" أو "تساعحا" في الماضي أضحى اليوم "فشلا" أو "إخفاقا"، وما كان يعد بالأمس "اختياريا"، بات اليوم "اضطراريا"، وما كان يمثل البارحة "رمزا للوحدة والازدهار والتمدن" صار اليوم "رمزا للتشتت والاستغلال وانعدام الأمن"، وما كانت أسبابه مرتبطة بالداخل أصبحت مرتبطة بالخارج، وما كان بالأمس "سليبا" صار اليوم "إيجابيا"، ومن كان يعتبر "مستعمرا" أصبح "مستثمرا"، ومن كان من خصاله الوفاء أصبح رمزا للذكاء ومعارضا في الخفاء، وما كان يمثل "عصيانا" أو "تمردا" بصفة متقطعة أضحى اليوم "انتفاضة وطنية" أو "حركة تحررية" أو "مقاومة شعبية مستمرة"، وهاتان لغتان في تاريخ المغرب أقل ما يمكن أن يقال عنهما أنهما في منتهى التناقض، ومن حق الموضوعية العلمية، كما يقول ابراهيم بوطالب "أن تحتفظ من كليهما وأن تبحث عن الحقيقة التاريخية بينهما، لا لتنافر الرؤيتين فحسب، ولكن لاعتمادهما على الذاتيات أكثر من اعتمادهما على المعقولات"².

من الملاحظ أيضا أن هذه الفترة ستشهد ازدواجية في استعمال منطق التوازي في الكتابات المغربية، ذلك أن الهدف كان مزدوجا: الرغبة في إبراز مدى التطابق والتشابه بين الأمازيغ والفينيقيين

¹ - أنظر حول هذا الموضوع:

Marcel Benabou, *La résistance africaine à la romanisation*, Paris : Maspero, 1975 (1976) , 10, 12-13 ; Mohammed Arkoun, *Aux origines des cultures maghrébines*, in « *L'Etat du Maghreb* », Paris, 1991. pp - 131-134 ; Id. Comment lire l'espace maghrébin ?, in « *Héritages culturels du Maghreb : histoire et mémoire* », Casablanca , 2004 ; (Prologues ; N°29,30) ; Id., *Pensée idéologique et histoire du Maghreb*, in « *Modes de présence de la puissance arabe en occident musulman* » : Actes , du deuxième congrès international d'étude des cultures de la Méditerranée occidentale » I = Rapports, Alger : SNED, 1976.- p.119-155 ; Id. Penser l'histoire du Maghreb, in « *L'Etat du Maghreb* », Paris : La découverte, 1991.- p.48-50 ; Id. Penser une histoire plurielle : la seconde libération du Maghreb, in « *Le monde diplomatique* », Mars 1992.- p. 3 ; Yvon Thebert, Romanisation et déromanisation : histoire décolonisée ou histoire inversée ?, *Annales, Economies, Sociétés, Civilisations*, XXXIII, Paris, 1978, p. 64 – 82 ; Mansour Ghaki, « Déjà dans l'antiquité, l'acculturation des Berbères, in *Patrimoine en partage* », *Forum d'Imerqane* ; Actes du , Ier Festival des cultures immatérielles méditerranéennes de Nador organisé en juillet 2007 ; Agence de l'Oriental ; préface Touria Jabrane .- Rabat : A. de l'Oriental, 2007, p. 77 ; Hamid Arraichi, Penser autrement l'histoire culturelle du Maroc : l'exemple de l'Antiquité, communication présentée à Agadir en mois de novembre 2008 (sous presse)

² - ابراهيم بوطالب، المرجع السابق، 1989، ص. 134

من جهة، ومن جهة ثانية، تكريس التطابق الذي كان سائدا في السابق (روما ،، فرنسا) - بشكل معكوس - لإبراز مدى تشابه الاستعمار الغربي قديما و حديثا، وفي نفس الوقت موقف الأهالي القار منه، في الماضي والحاضر¹.

كما تجدر الإشارة بالمناسبة إلى أنه لم يعد تبادل التهم حول الإخفاقات أو الانتكاسات أو المسؤوليات يقتصر على المستوى العمودي (أوروبا، شمال افريقيا) فقط، بل تعداه، خلال هذه المرحلة، ليشمل أيضا المستوى الأفقي، خاصة فيما يتعلق بالتاريخ المشترك بين بعض بلدان شمال افريقيا².

أما على مستوى المواضيع التي حظيت أكثر من غيرها باهتمام المغاربة، فعلى الرغم من التنوع النسبي الذي نسجله³، يظل موضوع الاحتلال الروماني وما ترتب عنه مجالا وعمقا، المحور الرئيسي للدراسات خلال هذه الفترة، ويليه من حيث الأهمية، موضوع الممالك، وفي المرتبة الثالثة، موضوع التوسع الفينيقي - القرطاجي، لتحلل المواضيع الأخرى الصفوف الأخيرة بعد ذلك. وقد تتساءل عما إذا كانت أسباب هذه العناية الخاصة التي كان وما يزال يحظى بها موضوع الاحتلال الروماني لدى الباحثين في تاريخ شمال افريقيا عامة، مرتبطة بتحديد في المصادر أو المستندات المعتمدة أو في المناهج المتبعة أو الأهداف المتوخاة خلال المرحلة المدروسة.

¹ - لعل خير نموذج يمكن أن نسوقه في هذا الباب هذا المقال الذي يحمل عنوانه أكثر من دلالة :

Z.M'barek, La résistance marocaine à la pénétration étrangère: jihad et résistance; deux constances de l'histoire du Maroc, in « *Le Maroc à l'avènement de Moulay Abdelaziz à 1912* », Mohammedia, 1989, p. 259 – 267

أنظر أيضا محمد شفيق، لحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين، الرباط، 1989، ص. 43-44 و 47 وابن عزوز حكيم، "البربر"، في، معلمة المغرب، المجلد 4، 1991، ص. 1131 – 1132؛ عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي - 1 - مغرب الأرض و الشعب، بيروت، 1996، ص. 52.

² - أنظر صورة الملك ماسينيسا و الملك بوكوس صهر يوخرة مثلا في الكتابات المغربية المتأخرة مقارنة مع صورتها في الكتابات الجزائرية : محمد شقير، مرجع سابق، 2002 ؛ حليلة غازي بن ميس

Halima Ghazi-Ben Maissa, Masinissa ou le début de la dépendance de l'Afrique Mineure Antique, in « *Nouvel éclairage sur l'histoire et la civilisation de l'Afrique du Nord Antique* », Rabat, 2007, pp.24-35 ; Tahar Oussedik, *La berbérie*, Alger, 1989, pp. 83 – 84

³ - أنظر حول هذا التنوع: حميد عرايشي، أطروحة، الجزء الثاني، الفصل الثالث : تاريخ واسطغرافيا

أكيد، أن هذه المرحلة قد عرفت تطورا نسبيا في نتائج الأبحاث تمثل بالخصوص في العثور على وثائق إغرافية أو التعريف بها، وبقايا أثرية جديدة ساهمت في إنعاش البحث حول هذا الموضوع، لكن هذا المعطى لا يفسر لوحده هذه العناية الخاصة والتميزة و المستمرة التي كان وما يزال يحظى بها الاحتلال الروماني، إذ لا يمكن أن ننفي ما كان للأوضاع السياسية التي عرفتها منطقة شمال إفريقيا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية من تأثير في هذا الباب، تمثل في اندلاع مسلسل و أشكال وأساليب مختلفة من الاحتجاجات ضد الاستعمار توجت باستقلال المغرب في مرحلة أولى، وباقي دول شمال إفريقيا في مراحل لاحقة. وقد صاحب هذا الحدث شكل أو أسلوب آخر من الاحتجاجات ضد السلطات الاستعمارية أو مخلفاتها فيما بعد تمثل أو تجلى خاصة في التنديد بالإنتاج التاريخي الكولونيالي حول شمال إفريقيا والدعوة إلى مراجعته. وبقدر ما شكل موضوع الاحتلال الروماني في القرن التاسع عشر وطيلة النصف الأول من القرن العشرين المرجعية التاريخية بالنسبة لفرنسا في مرحلة أولى¹ لإضفاء طابع المشروع على استعمارها لشمال إفريقيا، غدا الموضوع نفسه بعد الاستقلال مرجعية أو نموذجاً للكتابات الوطنية والعربية على وجه الخصوص، لإذكاء أطروحة الرفض المتحذر والمقاومة المستمرة في التاريخ المغاربي ضد الاحتلال الأجنبي روما قديما وفرنسا وإسبانيا آنذاك؛ الشيء الذي ترتب عنه نوع من المغالاة في تصوير الأحداث وتقديمها. وبقدر ما يعاب على الكتابات الكولونيالية كونها جعلت من روما وحدها المسؤول الرئيسي عن أي تقدم وازدهار بشمال إفريقيا، يعاب اليوم على بعض الكتابات الوطنية والعربية والغربية كونها تجعل من روما المسؤولة الوحيدة عن كل الإخفاقات والإرهاصات والإجهاضات والتراجعات والانشقاقات والمآسي بشمال إفريقيا.

وفيما يخص المحاور فبالرغم من تنوعها النسبي فقد ظلت في مجملها أو معظمها تتمحور حول نفس الأسئلة المتداولة أو المطروحة في المراحل السابقة، مع فارق واحد، ولكنه أساسي، هو السعي أحيانا إلى الإجابة عنها من "الداخل"، وهو عكس ما كان سائدا في السابق حيث غالبا ما ارتبط

¹ - مما شك فيه أن موضوع الاحتلال الروماني قد شكل طيلة القرن التاسع عشر و النصف الأول من القرن العشرين مرجعية أساسية في الكتابات الفرنسية، إلا أنه من الملاحظ أن هذه المرجعية ستأخذ في التلاشي لتحل محلها المرجعية الغالية تدريجيا ابتداء من أواسط القرن العشرين . أنظر في هذا الباب أعمال :

Gisèle Chovin, *Aperçu sur les relations de la France avec le Maroc, des origines à la fin du Moyen âge*, *Hespéris*, XLIV, 1957, p. 248-298 ; Marcel Leglay, *Les Gaulois en Afrique*, in « *Mélanges Albert Grenier*, II, Bruxelles-Van-Berchem : Latomus, 1962, p. 995-1029

البحث عن الأجوبة بالطرف الروماني دون غيره، بحيث لم يكن يتم اللجوء للعناصر المحلية إلا عندما يتعلق الأمر "بالإخفاقات"، بل حتى في هذه الحالات، كانت القاعدة هي البحث عن تفسيرات من جانب روما، كمعاقبتها على عدم تعميم الاحتلال و "ترك الجبال و الصحاري" خارج أهدافها مثلاً.

فلا غرابة إذن أن يحدد النقاش، ابتداء من هذا التاريخ، بين المؤرخين و مختلف الباحثين والمهتمين بتاريخ إفريقيا الشمالية عامة، وموريطانيا الطنجية خاصة، حول المجال الفعلي المحتل من قبل روما، خلال العهدين الأمبراطوري الأول والثاني، ووضعيتها الولائية من الناحية العسكرية، والتقييم العام للعلاقة القائمة بين الأمازيغ والرومان، والوضعية الإدارية، ومدى "نجاح" أو "فشل" سياسة الرومنة. هذا وتجدر الإشارة إلى أنه، على الرغم مما نسجله من تعارض في الأطروحات المقدمة، فهي لا تختلف حول ضيق المجال المحتل، أو عدد الجيوش المربطة بموريطانيا الطنجية والمنشآت العسكرية المقامة بها، أو حول الأحداث العسكرية والقرارات السياسية والدبلوماسية التي شهدتها المنطقة، أو نسبة "الرومنة" أو "الترومن" بها، بقدر ما يختلفون في تحديد الأسباب وتواريخ الأحداث وتقييم النتائج .

هناك ثلاثة مواضيع، متماسكة ومتراصة، تصب كلها في اتجاه واحد، شدد إليها، أكثر من غيرها، أنظار الباحثين المغاربة خلال هذه الفترة: الجيش والمنشآت العسكرية، مسألة الحدود والطريق البري بين القيصرية وموريطانيا الطنجية، العلاقات الأمازيغية - الرومانية. لكن أحد الرهانات الأساسية في النقاش الاستعماري حول الاحتلال الروماني بشمال إفريقيا عامة، وموريطانيا خاصة، خلال هذه الفترة، هو إشكالية العلاقات الأمازيغية - الرومانية ومدى ارتباطها بالتغيرات الإدارية والسياسية والعمرانية التي شهدتها الولاية أو بعض أجزائها، والتحويلات التي عرفتها حدودها في أواخر القرن الثالث الميلادي.

كيف يمكن تفسير "توحيد" الموريطانيتين، القيصرية و الطنجية، تحت سلطة وال واحد يحمل أحيانا ألقابا خاصة ؟ بصفة مؤقتة وفي عدة مناسبات. وما هي القراءة التي يمكن تقديمها لحركات الجيوش أو تحصين المدن ؟ وكيف يمكن تبرير أو شرح القرار الذي تم بموجبه تراجع الحدود بالولاية ؟ هل يجب إتباع الأطروحة التي ترى في ذلك أمراً طبيعياً لا علاقة له بأي ضغط أمازيغي داخل أو خارج مجال نفوذ روما ؟ أم الحديث عن "كفاح مسلح" أو "حركات تحررية" و "مقاومة مستمرة" تكون قد أدت بروما حتما إلى نهج سياسة دفاعية ودبلوماسية في مرحلة أولى، ثم تراجع قواتها في

مرحلة ثانية، كما يرى ذلك بعض المؤلفين ؟ أم طرح مجموعة من الأسباب المعقدة التي تكون قد ساهمت، بدرجات مختلفة، في ذلك ؟

تلك هي بعض الأسئلة التي تمحورت حولها الدراسات و الأبحاث التي اتخذت من الاحتلال الروماني موضوعا لها خلال هذه الفترة، والتي حاولت مجموعة من الباحثين و المهتمين الإجابة عنها، كل بطريقته، في آن واحد أو بالتوالي.

وعلى الرغم من هذا الاهتمام المميز، والنقاش الحاد الذي ظلت تثيره هذه المواضيع، وما أسفرت عنه من نتائج إيجابية، فقد ظلت معظم الأسئلة المطروحة و الاختلافات المسجلة بشأنها سابقا، قائمة في مجملها¹. والملاحظ في هذا الباب، هو تركيز الأفلام المغربية على ردود فعل الأهالي مع المبالغة أحيانا في تقييمها كما يتضح ذلك من خلال استعمال مفردات و تجميعات تفتقر لما يدعمها على المستوى العلمي، أو أفعال تفيد العجز، عندما يتعلق الأمر بالطرف الروماني، وأخرى، بالمقابل، تفيد الرفض المتحذر و التام و المستدم، بالنسبة للأهالي². ولعل خير نموذج نسوقه في هذا الباب، ماورد على لسان محمد اللبار سنة 2001 الذي نجده يقول في سياق الحديث عن الأوضاع بالمغرب الشرقي خلال العصور القديمة: " تكمن أهمية مقاومة شرق المغرب للأهداف التوسعية الرومانية في أنها كانت خلال منتصف القرن الأول للميلاد مقاومة سبقة إلى إعلان الثورة العارمة على الاستعمار الروماني في ممتلكات المملكة الموريطانية سابقا، إن لم تكن هذه المقاومة في حد ذاتها من الأسباب العميقة التي كانت من وراء تقسيم هذه المملكة وتنظيم أراضيها في ولايتين: موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية. كما كانت هذه المقاومة طيلة قرون الاحتلال الروماني لإفريقيا الشمالية مقاومة شعبية مسلحة مستمرة تحفزها ولاشك عدة عوامل سياسية واقتصادية مرتبطة بالجال الجهوي الحيوي لقبائل المنطقة، مقاومة استطاعت مع الزمن أن تفرض على المستعمر الروماني احترام المنطقة و عدم التفكير

¹- أنظر في هذا الباب : حميد عرايشي، الأطروحة، الجزء الثاني، الفصل الثالث : تاريخ و اسطغرافيا

²- أنظر الأفعال المتداولة في الكتابات المغربية فيما يخص العلاقة بين الطرفين: غالبا ما تستعمل أفعال تفيد العجز والفتشل(اضطروا، تراجعوا، فشلوا، لم ينجحوا، أرغموا) عندما يتعلق الأمر بالطرف الروماني، وأفعال تفيد البطولة والشهامة (رفضوا، قاوموا، ثاروا، تصدوا، انتفضوا) عندما يتعلق الأمر بالأهالي الأمازيغ.

في استعمارها أو استغلالها وأرغمته انطلاقاً من نهاية القرن الثالث للميلاد على التراجع إلى ما وراء نهر اللكوس شمالاً في موريطانيا الطنجية وإلى ما وراء واد شليف شرقاً في موريطانيا القيصرية¹. أما موضوع **الممالك** الذي ظل لمدة طويلة يحتل مكانة محتشمة، بحيث غالباً ما كان يتم تناوله في سياق الحديث عن قرطاجة و روما، فقد أصبح في العقود الأخيرة يحتل المرتبة الثانية في الترتيب من بين المواضيع التي تعالجها الأقسام المغربية، ويجب أن نسجل هنا أن هذا الارتفاع في عدد الدراسات لا يعني أنها تتوفر على نفس القيمة العلمية، إذ أن بعضها يعتمد على ببليوغرافيا متقدمة²، وبعضها الآخر ظل يكرر استنتاجات دراسات سابقة³، و طرف ثالث يتميز عن غيره في كثافة استعمال المصادر ومنهجية استغلالها مع تباين في الاستنتاجات⁴. ولعل خير دليل على هذا التحول هو بروزها أو تشكيلها لعناوين دروس أو مجزوءات في مقررات التعليم الثانوي والجامعي أولاً ثم عناوين كتابات و أبحاث خاصة ثانياً⁵، ثم تحضير دراسة خاصة في الموضوع من قبل المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب⁶. وكذلك المكانة التي أصبحت تحتلها صورة يوبا الثاني على أغلفة الإصدارات و حتى عندما

¹- محمد اللبار، "حول مقاومة شرق المغرب للأهداف التوسعية الرومانية خلال منتصف القرن الأول للميلاد"، في "وقفات في تاريخ المغرب: دراسات مهداة للأستاذ ابراهيم بوطالب، الدار البيضاء، 2001، ص. 298 ؛ نفسه، إفريقيا الوندالية، بين الحملات البيزنطية و الثروات المورية 429 - 534م، فاس، 2003، ص. 33، 54، 82، 121، 191-192، 198 و 270، أنظر أيضا أعمال ماجدة بنحون، "انتفاضة القبائل الأمازيغية ضد الرومان"، في مرجع سابق، 2007، ص. 26-36 وعبد الرزاق العسري، "جوانب من علاقة روما ببعض القبائل الخارجة عن مجال النفوذ (نموذج الباكوات)"، في، المجالات الحدودية في تاريخ المغرب، المحمدية، 1999، ص. 21 - 30.

²- محمد بوكبوت، مرجع سابق، يعتمد أساسا على كتاب عبد الله العروي ؛ ومحمد التازي سعود، صفحات من تاريخ المغرب القديم، 2008، يعتمد ببليوغرافيا لا تتجاوز سنة 1980؛ محمد شقير، مراجع سابقة، 2002، 2007 و 2008، لا نجد في أعماله أدنى إشارة إلى أبحاث و إصدارات حديثة سواء أكانت مغربية أو أجنبية.

³- نموذج ماجدة بنحون التي تعتمد أساسا على أعمال كابريل كامبس.

⁴- أنظر بشكل خاص أعمال محمد مجدوب و حليلة غازي بن ميس.

⁵- النشرات الجماعية : مذكرات من التراث المغربي، الموسوعة المغربية الكبرى

⁶- أنظر مشاريع المعهد في: نشرة المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، العدد الأول، محرم - صفر 1429 ، يناير

- فبراير، 2008، ص. 6 (بالحروف العربية) و ص. 4 و 5 (بالحروف اللاتينية)

يتعلق الأمر أحيانا بممالك شمال أفريقيا¹، أو استعمال كلمة مملكة حتى عندما يتعلق الأمر بتاريخ المغرب القديم عامة². وتجدر الملاحظة هنا أننا لم نعر على أية إشارة في هذه الدراسات لأعمال بير ليفيك علما بأن المؤلف طرح المسألة بشكل لم يسبق لأحد أن أثارها³. وإذا كان هذا التحول المشار إليه قد يعزى لأسباب موضوعية متمثلة في التطورات التي عرفها البحث الأثري بالمغرب خلال هذه المرحلة، الشيء الذي كان له وقع على مراجعة بعض الفرضيات المقدمة سائفا أو تنقيحها، وتقدم اقتراحات جديدة⁴، فإننا لا يمكن أن ننفي كون الموضوع قد أصبح يشكل "المرحلة المرجعية" بامتياز بالنسبة للخطاب المغربي، ولعل أول محاولة مغربية من شأنها تأكيد ذلك هي التي جاءت في مقال لعبدالله العمراني جاء فيه ما يلي: "ألفت النظر إلى أن عرش المغرب عريق عميق الجذور في أحشاء الزمن، على عكس ما حاوله أو يحاوله بعض الباحثين المغرضين من الإيحاء غير هذه الحقيقة الناصعة (...). يكفيننا أن نرجع إلى ما قبل الميلاد ببضع مئات من السنين لنرى العرش المغربي قائم الذات، ونجد الأمة المغربية ثابتة الكيان على خلاف ما يدعيه بعض المغرضين ممن أشرت إليهم منذ هنيهة"⁵، كما يتضح ذلك من خلال السعي إلى إبراز مدى تجذر الملكية واستمرارها بالمغرب، أو

¹ - نموذج الكتاب المدرسي، وكتاب محمد بوكبوت و مؤرخا كتاب محمد التازي سعود

² - أنظر في هذا الباب حليلة غازي بن ميس، "الأصول التاريخية للمؤسسة الملكية المغربية"، في وجدة والجهة الشرقية، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2005، ص. 19 - 35 والمصطفى مولاي رشيد، "ملوية ومملكة المغرب القديم"، في وجدة والجهة الشرقية، م.س.، 2005، ص. 37 - 52؛

Halima Ghazi Ben Maissa, Le royaume du Maroc antique : image et réalité, in « *Mélanges offerts au professeur Brabim Bontaleb* », Casablanca, 2001, pp. 9-31

³ - باستثناء يوسف بوكبوت (2006 و 2008 بالفرنسية) الذي ينقل حرفيا فقرات من عمل بير ليفيك دون ذكره: أنظر:

Pierre Leveque, L'émergence de pouvoirs structurés dans l'Afrique mineure de l'âge du fer, in « *Gli interscambi culturali e socio-economici fra l'Africa settentrionale e l'Europa mediterranea: Atti del congresso internazionale di Amalfi, 5-8 dicembre 1983*, Napoli, 1986, pp. 635-657 ; Id., Avant et après les princes. L'Afrique mineure de l'Age du fer, in « *Les Princes de la Protohistoire et l'emergence de l'Etat* » : Actes de la table ronde internationale organisées par le Centre Jean Berard et l'E cole française de Rome, Naples, 27-29 octobre 1994, Paris : Centre Jean Bérard ; Rome : Ecole française de Rome, 1999, p. 153 - 164

⁴ - أنظر أعمال محمد مجدوب و حليلة غازي بن ميس و مؤرخا عبد العزيز أكرير.

⁵ - عبد الله العمراني، "العرش المغربي عبر التاريخ"، الثقافة المغربية، ع 8، 1973، ص. 110 - 111، وأصل المقالة محاضرة ألقيت بالكتابة العامة بتطوان يوم 6 مارس 1973 بمناسبة الاحتفالات بعيد العرش .

محاولة تفسير، إن لم نقل تبرير، أعمال بعض الملوك ومواقفهم إزاء بعض الأحداث الداخلية أو الخارجية وما ترتب عنها من نتائج¹، فضلا عن الصورة التي نحتتها بعض الأقلام المغربية حول بعض الملوك². ولعل هذا التوجه المضاد أو المعاكس لما كان متداولاً في السابق، والذي لم يقتصر على الأقلام المغربية لوحدها، هو الذي دفع ميشيل كولتيلوني ترانوي، في سياق الحديث عن الصور و التمثلات المرتبطة بالملك يوبا الثاني و ابنه بطوليمايوس من بعده في الدراسات المعاصرة، إلى القول: " وهاتان مدرستان تلتقيان في كونهما تقترحان تركيباً تبسيطياً لوضعية الملوك الموالين الغامضة، وتجاهل الخط السياسي الذي رسمه كل واحد منهما. فقد كان هم يوبا الثاني الدائم هو تسليم السلطه لإبنه والحفاظ على استمرارية الأسرة، وكان بطوليمايوس يسعى إلى أن يفرض نفسه بإصرار كخليفة شرعي (...)."³

¹- أنظر بوجه خاص، أعمال محمد شقير. الذي يقدم خطاباً لا يختلف في نظرنا في عمقه من حيث المنهج والنوايا عن سابقه (إقامة جسر بين الماضي والحاضر). كما يبدو من خلال الفقرات التالية: " طيلة حكم يوبا الثاني الذي امتد لفترة طويلة، حافظ المغرب على استقلاله السياسي و ازدهاره الاقتصادي و اشعاعه الثقافي. وبالتالي بقيت ذكرى هذا العاهل مترسخة في قلوب السكان الذين كانوا يقدسونه لدرجة بلغت العبادة، وبعد وفاة جوبا الثاني، خلفه ابنه بطليموس الذي واصل سياسة أبيه في الحفاظ على استقلال البلاد و تكريس وحدة الدولة "... " إن ثورة أيدمون كانت تجسد تحذير الملكية في نفس المغاربة، حيث كانت تشكل رمزا لاستقلال البلاد". محمد شقير، *تطور الدولة في المغرب ...*، 2002، ص. 151 و 156 أنظر أيضا أعمال حليلة غازي بن ميس

²- إذا ما استثنينا الدراسة الحديثة لحليمة غازي بن ميس التي تحمل فيها ماسينيسا مسؤولية تبعية "تامازغا" لروما.

Halima Gazi Ben Maissa, *Masinissa ou le début de la dépendance de l'Afrique Mineure Antique*, in « *Nouvel éclairage sur l'histoire et la civilisation de l'Afrique du Nord Antique*, 1^{ère} édition, Ribat, 2007, pp.24-35 .

لكن من الملاحظ أن المؤلف لا تطبق نفس المنطق عندما يتعلق الأمر بأحد ملوك المغرب. أنظر في هذا السياق كيف تصور، أو تترر مواقف الملك بوكوس صهر يوغرطة و الملك بطوليمايوس بن يوبا الثاني في أعمالها الصادرة سنة 1995 و 2002 المذكورة سالفا. وانظر أيضا صورة الملك بوكوس في أعمال محمد شقير، مراجع سابقة ؛ وعبد العزيز أكرير، الذي يجده يقول في سياق الحديث عن الملك بوكوس صهر يوغرطة: " (...). بوكوس الأول الذي تمكن بدهائه و حسه السياسي من ضم منطقة إستراتيجية من نوميديا (...)." ص. 75 .

³- أنظر:

Michelle Coltelloni -Trannoy, *Le Royaume de Maurétanie sous Juba II et son fils Ptolémée*, Paris , CNRS, 1997, p. 213

كما أنه من الملاحظ أن التجديد في المعطيات لم يصاحبه دائما تغيير في الرؤى أو إعادة طرح الأسئلة من الأساس. فقد ظلت بعض الأسئلة المتعلقة بأسباب وتاريخ وظروف بزوغ و، أو إخفاق السلطة الملكية، وما صاحبها من تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ومجالية، عالقة، مشكلة بذلك محور الدراسات وموضوع خلافات بين الباحثين طيلة هذه الفترة¹، وعلى رأسها التفسيرات المقدمة بشأن إخفاق محاولات الملوك الأمازيغ في بناء وحدة سياسية واسعة النطاق، أو الحفاظ على استقلالهم وكيانهم الفعلي لمدة طويلة. بل إن نتائج الأبحاث الأثرية لم تستغل في الغالب إلا للرد على الكتابات الكولونيالية، حيث غالبا ما يتم التركيز على ما هو إيجابي من خلال إبراز وجود مدن وعمدن وازدهار اقتصادي سابق للاحتلال الروماني، في حين يتم السكوت عما صاحب هذه التحولات السياسية والاقتصادية من تغيرات اجتماعية و بيئية وثقافية قد لا تكون دائما إيجابية². ولعل هذا ما يفسر التوجه العام خلال هذه الفترة، وخاصة في الكتابات الوطنية، الذي يتمثل في السعي إلى تحميل روما مسؤولية كل ما هو سلبي، بما في ذلك استغلال الموارد، علما بأن ظهور كيانات سياسية من النمط الملكي قد صاحبه بدون شك تحولات عميقة سواء تعلق الأمر بالملكية وتوزيعها أو وتيرة استغلال الموارد أو تنظيم الجيش وتسخير اليد العاملة للتشييد، مما يكون قد ساهم في زعزعة ما كان،

¹ - أنظر الخلافات التي ما تزال تطرحها مواضيع مثل تحديد مجالات نفوذ بعض الملوك (باكا، بوكوس و أسكالييس مثلا) أو تواليهم على الحكم ووضعية موريطانيا سياسيا تحت حكمهم . أنظر بوجه خاص أعمال محمد مجدوب و حليلة غازي بن ميس و مؤخرا عبد العزيز أكرير الذي تقدم بقراءة جديدة حول الوضعية السياسية بموريطانيا قبل تولية يوبا الثاني، وهي أطروحة مغرية لكنها تفتقر لحجج أكثر قوة مما قدمه المؤلف لدعمها.

² - إن التكتلات السياسية من النمط الملكي تفرض وجود قوة عسكرية و استقرار السكان و جباية الضرائب مما ينتج عنه بالضرورة إعادة توزيع الملكية وما يصاحب ذلك من تفاوتات اجتماعية و اقتصادية قد تؤدي إلى اضطرابات وثورات داخلية مرتبطة بالسياسة المتبعة من طرف الحكام إزاء الأهالي. كما أننا نجهل كل شيء عن الممتلكين الحقيقيين لوسائل الإنتاج و السياسة الاقتصادية التي كانت متبعة وهي أيضا عناصر تمكن من قراءات متعددة للاقتصاد الموريطاني، هذا فضلا عن الوضعية السياسية وبالتالي الاقتصادية خلال عهد حكم يوبا الثاني و ابنه بطوليمايوس حيث كانت بعض المناطق خارج نفوذها و تابعة لروما . فكيف لنا أن نتحدث عن استقلال فعلي ؟ حول هذا الموضوع، أنظر الفرضية التي انطلق منها بيير ليفيك لتفسير ظروف بزوغ الكيانات السياسية وتطورها بمنطقة شمال افريقيا و ما يكون قد صاحبها

أو يفترض أنه كان، قائما في السابق من الناحية الاجتماعية والاقتصادية؛ الشيء الذي يفرض بالضرورة إعادة النظر فيما ينسب لقرطاجة وروما على حد سواء. فأن تكون الأولى قد ساهمت في توسيع هوة الخلافات بين الممالك الأمازيغية، والثانية في تفجيرها¹، والمساهمة بقسط أكثر في استنزاف خيرات البلاد ومواردها، أو تسريع وتيرة الاستقرار والتعمير أو الرفع من مستوى الصادرات أو الواردات فهذا أمر قد لا يختلف فيه اثنان، ولكن أن ينسب لروما كل شيء وأن يتم تحميلها مسؤولية الاستغلال والاستنزاف و التفاوتات الاجتماعية و تراجع الغطاء النباتي وتبرئة من سبقوها فهذا ما لا يمكن تدعيمه بالحجج.

إن المعطيات الجديدة لم توظف غالبا إلا في اتجاه واحد، وهو الرد على الصورة السابقة من خلال السعي إلى إبراز أن ما ينسب لروما من تقدم وازدهار ومعمار وتمدن قد كان سائدا من قبل، في حين لم يتم استخدام نفس المنطق فيما يخص العناصر الأخرى كالخلافات بين الملوك، واستغلال اليد العاملة، أو ظهور التفاوتات الاجتماعية وتعميقها، واستغلال أكثر للموارد وتشجيع الاستقرار وقمع الثورات التي قد يكون لها ما يبررها إذا ما ربطناها بالتحويلات التي من المرجح أن تكون قد صاحبت ظهور الكيانات السياسية من النمط الملكي (كمصادرة الأراضي مثلا). ولعل "غياب" هذا النوع من المقاربات هو الذي جعل كل الاتهامات توجه لروما واعتبارها مسؤولة عن كل الإخفاقات. وحول موضوع التوسع الفينيقي البوني فإن ما يثير انتباه كل مهتم بتاريخ شمال افريقيا أو المغرب، هو قلة الدراسات المغربية حول الموضوع مقارنة مع الإصدارات الأوروبية أو بعض البلدان المغاربية²، باستثناء المقالات التي غالبا ما تركز على النصوص الأدبية (رحلة حانون مثلا) أو نتائج الأبحاث الأثرية، أو هما معا³ والدراسات الخاصة التي لا تتناول الموضوع إلا عرضا⁴، لم تسجل هذه

¹ - أنظر في هذا الباب عبد الله العروي، مرجع سابق، ص. 87

² - أنظر على سبيل المثال أعمال عائلة بيكار Gilbert & Colette Picard و سيرج لانصيل Serge Lancel أو أعمال احمد فنتار M'Hammed Fantar .

³ - أنظر الأعمال الكثيرة (محمد رضوان العزفي مثلا) التي خصصت للرحلات مثلا (رحلة حانون و رحلة سكيلاكس المزعوم بوجه خاص) ونتائج الأبحاث الأثرية و الدراسات التاريخية حول تنكيس و موكادور بوجه خاص.

⁴ - أنظر الدراسات العامة حول تاريخ المغرب لكل من الحسن السايح و بنعبد الله عبد العزيز و ابراهيم حركات و عبد الكريم غلاب مثلا.

المرحلة أية دراسة خاصة بالموضوع، ولعل السبب في ذلك يكمن في كون الفترة، على عكس الخطاب التونسي مثلاً¹، لم تعد تشكل الفترة المرجعية في الخطاب المغربي الحديث الذي يظهر أنه أصبح أكثر تركيزاً على ما يسمى "بالمرحلة الملكية". وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل الفينيقيون و القرطاجيون بالمقابل، يحظون بمكانة خاصة في الكتابات المغربية عموماً.

إن القراءة المتمعة لإصدارات هذه الفترة بالرغم من قلتها و تنوعها تمكن من رصد تكرار دال لتعارض كرونولوجي من خلال التأكيد على مرحلتين أساسيتين: "مرحلة ما قبل الرومان" و "مرحلة الرومان" (أنظر الجدول الإجمالي). ومن خلال هذه الثنائية يتضح بأن الخطاب يحاول أن يثبت فكرة قيام تعارض بين "المرحلة الأولى" التي تتميز في نفس الوقت بالتجانس و "الإنصهار" بين الشعوب (الليبيين (البربر، الأمازيغ) و الفينيقيين)، حيث يتم الحديث عن "السلم" و "التفاعل" ويتم التركيز على العنصر الفينيقي - البوني على حساب العنصر الأمازيغي، وبالتالي "شرعنة" الوجود الفينيقي - البوني، هذه الشرعنة التي ترجع أساساً، وفق هذا المنظور، إلى التقارب بين العناصر ذات الأصل "المشترك"، والمرحلة الثانية التي تتميز "بالتنافر" و "الإصطدام". ومما لاشك فيه، أن هذا "التعارض" بين "المرحلتين"، وبالتالي بين العنصرين الفينيقيو-بوني والروماني، إنما يراد به أصلاً تعارضاً آخر، بين "الشرعية" و "اللاشرعية"، شرعية الوجود الفينيقي - البوني التي يستمدّها، في الخطاب، من التقارب اللسني و "العرقى"، الشيء الذي يفسر حضور السلم و غياب الصراع، ولاشرعية الرومان أو "الحضور الروماني" التي تتجسد لسنيا و "عرقياً" وبالتالي "تبرر استعمال القوة والعنف و غياب الإنصهار الحضاري"، بين العنصرين الروماني و الأمازيغي، و"نفور هذا الأخير و مقاومته للأول".

بعبارة أخرى، يستنتج مما سبق أن التأكيد، خلال هذه الفترة، على الفينيقيين و دورهم الحضاري بشمال إفريقيا عامة، والمغرب خاصة، هو في نفس الوقت "تغيب" للعنصر الأمازيغي ورفض للنموذج الروماني. ولعل هذا ما عبر عنه العديد من المؤلفين، على الرغم من تباين أطروحاتهم، حول الموضوع خلال هذه المرحلة: فهذا عبد الوهاب بنمنصور يقول: "كان الحكم القرطاجي لنا سمحاً، ولم تكن من خطة قرطاجنة تأسيس امبراطورية بالقوة وبسط النفوذ بالعنف، ولهذا اكتفت بحكم ما جاورها وجاور مراكزها التجارية على الساحل، وتركت حكم داخلية البلاد للملوك والأمراء

¹ - أنظر أعمال عائلة فنطر بوجه خاص

البربريين، وقد استمال هذا التسامح قلوب كثير من هؤلاء الملوك والرؤساء فكانوا يتصاهرون مع القرطاجيين ويقتبسون منهم الحضارة والثقافة ويقلدوهم في طرق المعيشة، حتى أصبح الإمتزاج تاما بين العنصرين وكونوا وحدة كاملة في كل شيء وصار من العسير التفرقة بين مغربي من أصل فينيقي ومغربي من أصل بربري كما حدث بين العرب والبربر فيما بعد، ويرى بعض المؤرخين أن السبب في ذلك يرجع إلى وحدة السلالتين أو تقاربهما¹ ويضيف في نفس الكتاب قائلا عن الطرف الروماني: " لم يكن الحكم الروماني سمحا و لا متساهلا كالحكم القرطاجي، بل كان حكما قاسيا يتسم بالغلظة و الطغيان، كما كانت سيرة الحكام الرومانيين فاسدة وسلوكهم سيئا، ولذلك ناصبتهم الإمارات والقبائل البربرية العدا و شنت عليهم الهجمات". وهذا علال الفاسي يقول، ردا على انتقادات عبد الله العروي²: "إن قرطاجة دولة مغربية لا استعمارية، وليس من اللائق أن نضحى بالحضارة التي تسمت باسمها وهي من صنعنا نحن المغاربة"³.

وفي نفس التاريخ تقريبا نجد عبد الله العمراني يقول: " إن بلاد المغرب جذبت انتباه بعض التجار الفينيقيين - والقرطاجيين من بعدهم - فقصدوا و أسسوا مستوطنات و مراكز للتجارة (...). يدلنا التاريخ على أن الانسجام كان قائما بين المغاربة و القرطاجيين ولاشك أن ذلك راجع إلى الصلات الوثيقة التي كانت تربط بين الشعبين القرطاجي و البربري فكلاهما سامي، كما هو راجع إلى تشابه العادات والتقاليد والمعتقدات. كل هذا دفع بالبربر إلى سلوك سياسة تعايش سلمي مع القرطاجيين، الأمر الذي يجعلنا نستنتج أن كلا الشعبين كان متأثرا و مؤثرا في الآخر."⁴

¹ - عبد الوهاب بنمنصور، قبائل المغرب، الجزء الأول، الرباط: المطبعة الملكية، 1968، ص. 92 و 95

² - عبد الله العروي، مرجع سابق، 1984، ص. 63 و 83، قال بشأن الاهتمام الذي كان يحظى به الموضوع من طرف الباحثين بصفة عامة، ومن قبل المغاربة بصفة خاصة: " أحرزت الدراسات الفينيقية منذ الحرب العالمية الثانية على تقدم باهر بسبب كشف أثرية مهمة دفعت الباحثين إلى تضخيم التأثير القرطاجي على المجتمع المغربي" مضيفا " إن جميع من يكتب عن امبراطورية قرطاج يستعمل أسلوبا عاطفيا رنانا يدعو إلى الدهشة"، وعن مساهمات المغاربة، نجده يقول: "رأوا المستعمرين يمحذون روما فانجازوا تلقائيا إلى جانب قرطاج، خضوعا للأسطورة القائلة إن شمال افريقيا منطقة يتحاذها باستمرار الشرق والغرب"

³ - علال الفاسي، "تاريخ المغرب" في، العلم الأسبوعي، عدد 26 مارس 1971 (تم تجميعه مع مقالات في "محاورة فكر عبد الله العروي"، جمع وترتيب بسام الكردي، الدار البيضاء، 2000، ص. 81

⁴ - عبد الله العمراني، مرجع سابق، ص. 111

وهذا مصطفى أعشي يقول: "وبصفة عامة فإن العنصر البشري الذي تكون نتيجة هذه الهجرات وتفاعل مع البيئة هو الذي سيدخل العصور التاريخية الذي سيلتقي به الفينيقيون أولاً، ثم البونيقيون ويتعاون معهم؛ ثم الرومان الذين سيرفضهم وسيقاومهم بعد ذلك. وهو العنصر الذي سيرحب بالإسلام ويفتح صدره لإخوانه العرب المسلمين"¹.

ونفس الخطاب تقريباً نجده على لسان محمد ابن عزوز حكيم حيث يقول: "هذا الشعور الجماعي كانت له أهمية قصوى على مدى التاريخ. فهو الذي يفسر التعاطف الذي حصل بين البربر والقرطاجيين في العصور القديمة، وهو الذي يفسر اليوم نجاح الإتصال والإلتحام الذي حصل بين البربر والعرب في العهد الإسلامي. فقد شعر البربر أن العرب، بسلوكهم وأسلوب عيشهم، من نفس الأسرة التي ينتمون إليها. وهذا بخلاف ما حدث لهم مع الرومان أو مع الدول الإستعمارية المعاصرة التي رفضوها رفضاً باتاً"².

وفي نفس السياق نجد هاشم العلوي القاسمي يقول: "لا يستبعد أن يكون لقرطاجة أثرها التمديني في منطقة المغرب كله. بل ومن المؤكد وجود هذا الإشعاع الحضاري الذي استمر إلى ما بعد سقوطها (...). ينتج عن هذا أن عملية "التمركز" بمعناها التمديني بدأت في المغرب مع الانتشار الحضاري الفينيقي — القرطاجي في بلاد المغرب (...)"³.

وفي العصر الروماني يبدأ عهد جديد في تاريخ نشأة المدن وحركة "التمدين" بالمغرب، وتأثر الوضع بالعامل الحربي الذي هيمن على المرحلة، وتظهر المدينة في هذا العهد وكأنها مؤسسة أمنية أنشئت لفرض "هيبة سلطة حاكمة" في البلاد (...). و يضيف " ثم تطورت الوقائع التاريخية بعد المرحلة الرومانية في اتجاه آخر، ولكن لم تسقط الدلالة الإسمية "للمغرب الأقصى" من الوجود التاريخي رغم بروز ظاهرة "التبعثر" التي عرفتها بلاد البربر كلها هذه الظاهرة التي كانت ظرفية ما لبثت أن وجدت ذائقاً في حركة الفتح الإسلامي الذي يكرر، بواقع جديد، التجربة الفينيقية السابقة (...)."

¹ - مصطفى أعشي، "جذور بعض مظاهر وحدة أرض المغارب أو المغرب الكبير خلال عصور ما قبل التاريخ"، في، **مجهودات وإسهامات الأجيال السالفة عبر التاريخ في بناء المغرب العربي**، مكناس، 1988، ص. 79

² - محمد ابن عزوز حكيم، "البربر"، معلمة المغرب، الجزء 4، الرباط، 1991، ص. 1131 — 1132

³ - هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري**، منتصف القرن العاشر الميلادي، ج 1، 1995، ص. 71 و 327

وهي نفس الصورة التي رسمها عبد الكريم غلاب قائلا: "اختلط سكان المغرب الكبير إذن بالمهاجرين في هجرات متبادلة عن طريق الصحراء مع الزوج الأفارقة و اختلطوا ببعض القادمين من المشرق: الفينيقيين الذين هاجروا إلى شمال إفريقيا واختلطوا بسكانها و أسسوا حضارة مشتركة، انطلاقا من قرطاج ومراكز تجارية على طول السواحل المغربية من تونس حتى اللكوس قريبا من (العرائش) على المحيط الأطلسي، بل إلى الصويرة و أكادير. و أثروا أيضا تأثير في الثقافة و اللغة والتجارة والفلاحة. كما أثروا، ولا شك، في المجتمع عن طريق الزواج، خاصة و أنهم لم يكونوا يظهرون كغزاة و مستعمرين على غرار ما ظهر به الرومان بعدهم، وإنما كانوا متحضرين متعاونين، وسيلتهم للتعاون: الثقافة والتجارة." ويضيف قائلا " فطبيعة الوجود الفينيقي هي التجارة العادية التي بدأت بالأحشاش و انتهت بالمعادن. و لم تكن طبيعة قوم غزاة كالمقدونيين والرومان بعدهم، ولا طبيعة مستغلين استغلال استيطان كالفنسيين و الإسبان " ¹.

وسيرا على "خطي" علال الفاسي، نجد حليلة غازي بن ميس تقول: "إلا أن الحضارة التي استهوت الشعب الأمازيغي وملوكه بصفة عامة و الشعب المغربي و سلاطينه بصفة خاصة هي الحضارة القرطاجية. ذلك لأن هذه الحضارة هي في الواقع حضارتهم. و فعلا ليس القرطاجي سنة 146 ق.م. سوى نتيجة انصهار بيولوجي بل وذويان (منذ ما يزيد عن ستة قرون) لحفنة من الفينيقيين في أعداد هائلة من الأمازيغيين. وليس الفينيقيون سوى شعب يظهر أنه نزع من اليمن في بداية الألفية الثانية ليستقر بالشاطئ الشرقي للمتوسط. وليس سكان اليمن سوى أقوام هاجرت من مهد الإنسانية إفريقيا و صحرائها الأمازيغية عبر باب المندب فاستوطنت هذه الأرض السعيدة منذ الألفية الرابعة والعشرين قبل أن تنتشر تحت ضغط وافدين أفارقة جدد في كل أنحاء شبه الجزيرة (...)" والفينيقيون كما يسميهم اليونانيون ليسوا في نهاية المطاف إلا بضاعتنا رد جزء منها إلينا (...) " ².

وهو نفس الخطاب الذي تردده المؤلفة قائلة: "ولنفرض أننا أمام خزف يشبه فعلا خزف قرطاجية، فهل ظل القرطاجيون فينيقيين أقحاحا وصناعتهم فينيقية وهم على أرض الأمازيغ لمدة قرون؟ أم أننا

¹ عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي — 1 — مغرب الأرض و الشعب، بيروت، 1996، ص. 36 و ص. 52

² حليلة غازي بن ميس، "مملكة المغرب القديم أو بعض المسكوت عنه في تاريخ المغرب"، نوافذ، 17، 18، 2002، ص. 145-146

أصبحنا أمام مجتمع مختلط ؟ بل وأكثر من ذلك، فحفاف المنبع البشري الفينيقي نحو قرطاجة من جهة وإحاطة سكانها الوافدين بالأضعاف المضاعفة من الأمازيغ، بموجب الحتمية الجغرافية، من جهة، يجعلنا نفكر، وبكل بداهة بل وبعلمية، بأن الجينات الفينيقية للقرطاجي تسير نحو التلاشي في حين تسير الأمازيغية منها نحو التقوية كلما دخل في تكوين شجرته رجل و امرأة من أرض تامزغا التي يعيش بها ويتمتع بخيراتها. فقرطاجة مدينة إفريقية بكل ما في الكلمة من معنى و القرطاجي ليس سوى نتيجة انصهار بيولوجي بل وذوبان لحفنة من الفينيقيين في أعداد هائلة من الأمازيغيين. ذلك أن قوم هؤلاء الوافدين، الذي لم يكن يعد بالملايين و إنما بالآلاف، قد انتشر من رغب في المحجرة منه في جزر المتوسط مثل مالطا و كريت وصقلية وسردينيا وجزر البليار وشواطئ إسبانيا ورش بعض النقاط من شواطئ أفريقيا (أي تونس الحالية). والعائلات التي اختارت موقع قرطاجة لاستقرارها، قد امتزجت وانصهرت في العدد الهائل للعنصر الأمازيغي حتى صارت المصادر تسمي أفرادها أفارقة و ليبيين. وعلاقات المصاهرة التي كانت تربط هذه العائلات بالأمازيغيين ذكرتها عدة مصادر تؤكد ذلك. وبالتالي فحضارة هذه المدينة حضارة إفريقية في واقع الأمر، وقول عكس ذلك مثل قول إن حضارة فاس وسلا والرباط وتطوان، أي المدن التي احتضنت الجالية الأندلسية، حضارة غير مغربية. و ينتج عن كل هذا أن كل مظهر من مظاهر التشابه بين حضارة مدينة قرطاجة وحضارة الجهات الإفريقية الأخرى هو بالطبع، إن لم يوجد له مثل له على أرض أجنبية، لا يمكنه أن يكون إلا إفريقيا. و عليه، فلا غرابة إن وجدنا تشابها بين الصناعة القرطاجية و الكيرتية والباناسية والبتواسية و الوليلية وغيرها. ولا غرابة إن وجدنا كلمة عند القرطاجيين والأمازيغ في نفس الوقت. فالقرطاجيون حسب المتخصصين، تكلموا مزيجا من الفينيقية و الأمازيغية أي نوعا من الكريول (créole). ولا غرابة، بل ولا مفاجأة في هذا. فلغة القوم مرآة لتركيبية مجتمعاتهم. (...)¹.

وهي تقريبا نفس النتيجة التي توصل إليها العربي اكنينح قائلا: " يتضح من تاريخ الممالك الأمازيغية، أن علاقة البربر بفينيقي قرطاجة، لم تكن تتسم بالتصادم والجفاء، كما سيكون عليه الحال

¹ - نفسها، "آثار الفينيقيين و القرطاجيين بمملكة المغرب القديم بين البحث عن الواقع والجري وراء السراب"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ع 26، الرباط، 2006، ص. 69 - 90 ؛

Halima Gazi Ben Maissa, A propos des Lixitains de Hannon ? in *L'Africa romana : Atti del XVII convegno*, Sevilla, 2006 , Roma, 2008, pp. 97 - 113

في عهد الرومان والوندال، والبيزنطيين، فيما بعد. فقد تفاعل سكان شمال افريقيا مع الفينيقيين، واندمجوا معهم لأنهم كانوا يشعرون أنهم من أصل واحد و تربطهم أكثر من رابطة، لذا تحالفوا معهم ضد روما (...)"¹

و مع نوع من الاختلاف، نجد محمد المبكر يقول في مقدمة كتابه: " لم تكن أرض المغرب خلافاً و لم تكن تعيش جاهلية جهلاء لما دخلها الرومان غازين مستعمرين. لقد سبق للحضارة الفينيقية الشرقية أن تغلغت بعمق شمال افريقيا وتفاعلت طيلة عدة قرون تفاعلا بينا مع قيم الأهالي خاصة في المنطقة الشرقية من البلاد(شمال تونس) حيث تأسست قرطاج كقوة عظمى فينيقية - أفريقية طاولت القوتين العظيمتين آنذاك: إغريق صقلية وروما الصاعدة.

وبعد تدمير قرطاج (146 ق.م.) و استيلاء روما على البلاد تدريجيا إلى أن استتب لها الأمر، تفاعل الأهالي مع الحضارة الجديدة و "ترومنوا" تدريجيا و بدرجات متفاوتة حسب انتمائهم الجغرافي والطبقي، محافظين في ذات الوقت على بعض سمات الحضارة الأفريقية القرطاجية. وتطورت عشرات المدن وانبعثت قرطاج من رمادها حتى أصبحت المدينة الثانية في الإمبراطورية الرومانية؛ ونشطت الحياة الحضرية وبرزت "نخبة" محلية متلتننة شاركت أحيانا على أعلى المستويات في حياة الإمبراطورية، فأنحدر منها الكاتب الموهوب والطبيب الذائع الصيت والإمبراطور ... فليس من المجازفة أن يتحدث الدارسون عن "حضارة رومانية - افريقية"².

و هو ما كرره المؤلف في كتابه الصادر سنة 2004 قائلا: " لا شك أن سكان شمال افريقيا القديم تفاعلوا بقدر ما مع معظم الحضارات المتوسطة السابقة على الحضارة الرومانية. و لعل الوجود الفينيقي الذي استمر قرونا عديدة كان له الأثر الأعظم في تطور البلاد، خاصة بعد تأسيس قرطاج في الركن الشمالي الشرقي من المنطقة، ودخولها في حوار حضاري مثمر مع السكان وممالكهم، وظهورها بمظهر قوة عظمى افريقية نازلت القوتين الآخرين في غرب المتوسط: إغريق صقلية وروما الصاعدة . وتمكنت روما بعد صراع طويل من تدمير قرطاج (146 ق.م.)، والقضاء على الممالك المحلية النوميدية والمورية (و آخرها مملكة بطوليمايوس بن يوبا الثاني في أقصى الغرب سنة 40)، وأنشأت الولايات وطورت نظام المدن و أدخلت قوانين وقيما جديدة في معظم المجالات، فتفاعل الأهالي مع الحضارة الجديدة -

¹ - العربي اكيننج، في المسألة الأمازيغية: أصول المغاربة (امازيغ، عرب، زنوج وآخرون ...)، فاس، 2003، ص 18

² - محمد المبكر، شمال افريقيا القديم: حركة الدواوين وعلاقتها بالدوناتية 305 م - 429 م، الدار البيضاء، 2001 ؛

أي أنهم "ترومونا" تدريجياً وبدرجات متفاوتة بحسب انتماءاتهم الاجتماعية والجغرافية - محافظين في ذات الوقت على بعض مقومات ثقافتهم الأفريقية القرطاجية. ومن ثم تبلورت "حضارة رومانية أفريقية" تنتمي بدون شك إلى المجال الروماني، ولكنها بالتأكيد لم تكن حضارة رومانية "خالصة"¹.

وهو تقريباً نفس الخطاب الذي يكرسه أيضاً محمد التازي سعود بطريقته حيث يقول: "إن الشيء الثابت الوحيد فيه، ولو من غير وضوح، هو اتصال هذه الأرض [أرض المغرب] وأهلها بالأمم والشعوب التي تحيط بهم. لقد كانوا في عماء التاريخ حتى فتح أعينهم عليه الواردون الساميون الذين هم الفينيقيون، في اتصال دام نحو 400 سنة قبل قرطاجة، كما دام نحو من ستة قرون معها، أي من 814 إلى 146 ق.م.

فهل اصطبغت الأرض والناس بصبغة هؤلاء الساميين؟ هل أثروا في النفوس والعقول، في حياة الناس ومعاشهم؟ نعم ولكن قلة. أما الأكثرية فاستمرت تعيش حياتها الأولى.

ثم كان الإتصال برومة ذات الحول والطول، سيدة البحر الأبيض المتوسط، مدة تقرب من خمسمائة وخمسين سنة، أي من 146 ق.م. إلى 430 م، فحاربتهم وحاربوها، وتجاوزوا في المسكن والعمل، وانخرطوا في جيوشها محاربين مساعدين. فهل اصطبغت الأرض والناس بصبغة هؤلاء (...) الرومانيين؟ وهل أثروا في النفوس والعقول، في حياة الناس ومعاشهم؟ الجواب أيضاً نعم ولكن قلة. أما أكثرية الناس فاستمرت — كما قلت آنفاً — تعيش حياتها الأولى"².

وهكذا إذا ما تركنا جانباً بعض الاستثناءات التي تسعى إلى "تجريد" الفينيقيين و، أو القرطاجيين من الدور الطلائعي الذي كان وما يزال ينسب إليهم أو التخفيف من حدته، من خلال إسناد بعض الأدوار الكلاسيكية لطرف آخر³، أو استبعاد أية علاقة محتملة بينهم وبين بزوغ الكيانات السياسية

¹ - نفسه، المسيحية و الترومن في شمال افريقيا: من عهد ديوكليتيانوس إلى الغزو الوندالي (284 م - 429)، الرباط، 2004، ص. 3

² - محمد التازي سعود، الإنمام بملخصة تاريخ أرض المغرب قبل الإسلام"، الدار البيضاء 2006 ص. 3 - 4

³ - كإرجاع بداية التاريخ إلى الاتصالات الأولى مع المصريين بدل الفينيقيين. أنظر في هذا الباب، مصطفى أعشي، "نماذج من بعض إسهامات الأمازيغ الحضارية"، في المسألة الأمازيغية في المغرب"، نوافذ، ع، 17، 18، 2002، ص. 106 و 108 بوجه خاص؛ نفسه، جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية خلال عصور ما قبل التاريخ، الرباط، 2002، ص. 26 - 31. هذا وتجدر الإشارة إلى أن هذا الطرح سبق وأن تقدم به مومسن سابقاً. أنظر في

المنظمة على النمط الملكي¹، أو التشكيك في ما ورد بشأنهم في المصادر الأدبية، هذا التشكيك الذي قد يبلغ أحيانا درجة النفي²، يتضح بأن الصورة التي رسمتها أغلب الأعلام المغربية، بمختلف مستوياتها و مرجعياتها، في الاسطغرافيا المعاصرة، ظلت في مجملها، رغم تباينها، كما كانت عليه في السابق

هذا الباب: بواسير الذي كتب في نهاية القرن التاسع عشر قائلا: "حول هذه النقطة، حقا لم ينتظر أهالي إفريقيا دروس غزاهم القرطاجيين. لاحظ السيد مومسن أن تقاليد الليبيين الفلاحية كانت سابقة بكثير عن نزوح الفينيقيين إلى هذه السواحل، وأنهم تلقوها، بدون شك، من مصر." ص. 371

G. Boissiere, *Esquisse d'une histoire de la conquête et de l'administration romaines dans le Nord de l'Afrique*, Paris : Hachette et Cie, 1878, p. 371
أو سابقة للتوسع الفينيقي بالغرب المتوسطي. أنظر: حليلة غازي بن ميس، "آثار الفينيقيين و القرطاجيين. مملكة المغرب القديم بين البحث عن الواقع والجري وراء السراب"، *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط*، ع 26، الرباط، 2006، ص. 74

¹- أنظر في هذا الباب أعمال محمد مجدوب، "المغرب والعالم المتوسطي"، *حفريات مغربية*، 1، 2001، ص. 15 و 22-25، نفسه، "أضواء على تاريخ المغرب القديم قبل العهد الفينيقي"، *النشرة الأثرية المغربية*، ع 20، 2004، ص. 16؛ نفسه، "موريطانيا من خلال المعلومات التاريخية الواردة في كتب الجغرافيين القدماء"، *بحوث*، عدد مزدوج، 12-13، 2005، ص. 170 ؛

Mohamed Majdoub, *L'Atlantide entre le mythe et la réalité*, in « Nouvel éclairage sur l'histoire et la civilisation de l'Afrique du Nord Antique » : *Hommage offert au Professeur Mustapha Moulay Rachid*, 1^{ère} édition, Ribat : Maktabat Dar Assalam, 2007, pp.3-23

حليلة غازي — بن ميس، "مملكة المغرب القديم أو بعض المسكوت عنه في تاريخ المغرب"، في "المسألة الأمازيغية في المغرب"، نوافذ، ع، 17، 18، 2002، ص. 131 وما يليها؛ نفسها، "الأصول التاريخية للمؤسسة الملكية المغربية"، في، *وجدة و الجهة الشرقية* " سلسلة إحياء التراث، 2، الدالبيضاء، 2005، ص. 19.

Halima ghazi Ben Maissa, *Le royaume du Maroc antique : image et réalité*, in « *Mélanges offerts au professeur Brahim Boutaleb* », Casablanca : Imprimerie Najah El Jadida, 2001, pp. 13-18

ملاحظة : تعود فرضية وجود ممالك محلية قديمة بشمال إفريقيا سابقة للتوسع الفينيقي في غرب المتوسط إلى أواسط السبعينات . أنظر في هذا الباب الفرضية المقدمة من قبل كوستانسكي

T. Gostynski, *L'Afrique du Nord dans l'Antiquité*, Marrakech :, p.5, 20

²- أنظر : حليلة غازي بن ميس، "آثار الفينيقيين و القرطاجيين. مملكة المغرب القديم بين البحث عن الواقع والجري وراء السراب"، *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط*، ع 26، الرباط، 2006، ص. 69 – 90؛

Halima Gazi Ben Maissa, *A propos des Lixitains de Hannon ? in L'Africa romana : Atti del XVII convegno*, Sevilla, 2006 , Roma, 2008, pp. 97 – 113

ممثلة في المبالغة والإشادة بالدور الرائد للفينيقيين والقرطاجيين، والتركيز على مدى الانسجام الذي يكون قد ساد بينهم وبين الأهالي (أنظر الجدول الإجمالي) .

هذه بشكل عام و موجز أهم المواضيع التي حظيت باهتمام الباحثين و المهتمين المغاربة بمختلف تخصصاتهم و أهم الصور والتوجهات التي طبعتها، خلال الفترة الممتدة ما بين 1957 و 2007، في حين من الملاحظ أن مواضيع أخرى لا تقل أهمية تكاد تكون غائبة، وعلى رأسها جذور السكان و حضارتهم¹، و المغرب في ظل الاحتلال الوندالي² و البيزنطي من بعده³. ولعل ذلك مرتبط بعدة أسباب، منها ما هو موضوعي يعود إلى قلة المعطيات و، أو طبيعتها، ومنها ما هو مرتبط بالمكانة التي كان وما يزال يحتلها الموضوع عامة في الدراسات بشكل عام، ومنها أيضا ما هو ذاتي نظرا لما

¹- من الملاحظ أن هذا الموضوع لم يحظ بأهمية تذكر خلال هذه الفترة إذا ما استثنينا بعض الأعمال المتواضعة : أنظر أعمال مصطفى أعشي بوجه خاص

²- إذا ما استثنينا مقالات محمد البار التي جمعها في أطروحته الصادرة سنة 2003 حول مجموع شمال إفريقيا لا تتوفر على أية دراسة حول المغرب. هذا وتجدر الملاحظة إلى أن أهم ما يميز هذه الدراسة، بالإضافة إلى كونها منشورة باللغة العربية، وهي الأولى من نوعها، هو احتراس المؤلف فيما يخص الصور النمطية المرتبطة بالوندال التي ظلت تجترها الأقلام الوطنية والأجنبية على حد سواء. لكن، من الملاحظ، بالمقابل، أن المؤلف ظل يجتر، على المستوى المنهجي أساليب لا تخلو من انتقادات (كطريقة استغلال صمت النصوص مثلا) أو على مستوى الصور المرتبطة بالسكان الأهالي والتي تضعهم في مرتبة دونية: من خلال استعمال أفعال (بادروا، يسروا، أرشدوا، انضموا، عززوا، ساندوا) تفيد استعدادهم "الدائم" لاستقبال الوافدين الجدد للتخلص من القدامى = عجز أو قصور على القيام بذلك دون مساعدة، وهو ما عبر عنه المؤلف في عدة مناسبات بقوله " بادروا إلى التحالف مع [الوندال]" ص. 56، وهي تشكل الحالات القليلة التي تسند فيها المبادرة للأهالي الأمازيغ (غالبا ما يقدمون في وضعية التلميذ الذي له قابلية التلقي والذي قد يصبح مجتهدا فيطور ما تلقاه من الآخر) ولكن في سياق يضعهم في موقف ضعف .

³- أنظر أعمال ماجدة بنحريط و فاطمة منقاشي والتي تمحورت أساسا حول محاور كلاسيكية: المجال الذي كان تحت نفوذ البيزنطيين وعلاقتهم مع الأهالي الأمازيغ بشمال إفريقيا، التي لا يحتل فيها المغرب إلا مكانة تكاد تكون منعدمة: ماجدة بنحريط، "حدود السيطرة البيزنطية على شمال إفريقيا"، المصباحية، ع 3، 1999، ص. 60 - 67؛ نفسها، "إشكالية الحدود في أرض المغرب بين الرومان والبيزنطيين"، المصباحية، ع 5، 2001، ص. 21 - 34؛ نفسها، "المقاومة المورية للاحتلال البيزنطي بين 533 و 548 م"، في "المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات ...، 2005، ص. 97 - 111 و فاطمة منقاشي، "جوانب من المقاومة الأمازيغية لبعض مقومات الحضارة البيزنطية بشمال أفريقيا"، في أضواء جديدة على تاريخ شمال إفريقيا القديم ...، 2007، ص. 92 - 113

كانت وما تزال تأثيره بعض المواضيع من حساسيات، وهو وضع يصعب معه تقديم أي تقييم موضوعي.

ومع ذلك، يمكن القول إنه في هذا المجال أيضاً، وإذا ما استثنينا بعض المحاولات المحتشمة، التي لا تخلو بدورها من بعض الانتقادات¹، فقد ظلت بعض الصور النمطية المتعلقة بهذه الأطراف سارية المفعول طيلة الفترة المدروسة². لكن في نفس الوقت، يمكن القول بأن موضوع جذور السكان وحضارتهم، رغم كونه لم يحظ بدراسات على غرار المواضيع الأخرى، فقد كان بطريقة غير مباشرة محورا هاما في الكتابات المغربية، بحيث شكل موضوع التوسع الفينيقي البوني بغرب المتوسط وإشكالية التحقيق (خاصة ما تعلق ببداية التاريخ بالمنطقة) وبزوغ الكيانات السياسية المنظمة وظهور الكتابة والانفتاح على العالم الخارجي والمساهمة في الحضارة المتوسطية، مناسبة أو فرصة لطرح مجموعة من التساؤلات حول مدى حقيقة ما ينسب للفينيقيين و القرطاجيين من أدوار طلائعية في إخراج السكان الأهالي من "عماء التاريخ"، وبزوغ التكتلات السياسية المنظمة على النمط الملكي³، وظهور الكتابة⁴.

¹- أعمال مصطفى أعشي الذي يصور الأمازيغ بكونهم السابقين (بل الأستاذة أحيانا) في مجموعة من الميادين علما بأننا لا نتوفر على معطيات كافية من شأنها أن تدعم هذا الطرح بشكل لا يترك مجالا للشك

²- بالإضافة إلى الدراسات العامة أو الموجهة للعموم أنظر: عبد العزيز بنعبد الله، "الهجرات اليمنية إلى المغرب عربته قبل الإسلام بسبعة عشر قرنا"، التاريخ العربي، العدد الخامس، 1998، ص. 79 - 103؛ أحمد العلوي، حول تاريخ العربية: الحميريون والأمازيغيون، مجلة كلية الآداب، بني ملال، ع 4، 2001، ص. 7 - 17؛ الحسن السائح، الحضارة المغربية: البداية والاستمرار، الرباط، 2000، الجزء الأول، ص. 70 وما يليها؛ ابن عزوز حكيم، م. س.

³- أنظر أعمال محمد مجدوب و حليلة غازي بن ميس بشكل خاص ؛ أنظر أيضا :

Youssef Bokbot, Réflexions sur le substrat Amazigh dans les villes et « Comptoirs » Phénico-puniques du Maghreb Occidental, *Hespéris – Tamuda*, XLI, 2006, pp. 9 – 23

⁴- أنظر : "نشأة الكتابة في البلاد المغاربية" = Débuts de l'écriture au Maghreb ، تنسيق أحمد سراج

ومحمد حسين فنطر، الدار البيضاء، 2004، ص. 13 - 18 تقديم أحمد سراج بالفرنسية ؛

Ahmed Skounti, Abdelkhalek Lemjidi, El Mustapha NamiI, *Tirra : Aux origines de l'écriture au Maroc*, Rabat , 2004, pp.25 - 46

خاتمة

لم يكن هدفنا في هذه المحاولة هو إعادة صياغة التاريخ أو تقديم الحصيلة بقدر ما أردنا تسليط الأضواء، - من خلال بعض النماذج - على الصورة التي يظهر بها تاريخ المغرب القديم في الكتابات المغربية الصادرة ما بين سنة 1957 و 2007. وذلك بالوقوف عند إشكالية التحقيق و أشكال المقاربات وما تولد عن ذلك من تصور لهذا التاريخ المنظور إليه بعيون مغربية.

وإذا كنا لاندعي أننا أحطنا بكل جوانب الموضوع فنحن نتمنى أن نكون قد ساهمنا عبر هذه المقاربة في البحث في تاريخ المغرب من خلال طرحنا لمجموعة من القضايا الأساسية التي نأمل أن تساعد على التفكير الجدي في إعادة صياغة الأسئلة المرتبطة بهذا التاريخ.

لقد كان هدفنا من هذه المساهمة هو الوقوف على الثابت والمتحول في الكتابات حول تاريخ المغرب القديم من خلال الأفلام المغربية وذلك عن طريق محاولة الكشف عن أوجه التشابه و الاختلاف بين إنتاج الأمس واليوم، إن على مستوى المنهج أو على مستوى الخطاب والنوايا أو على مستوى التأويلات والصور .

وقد حاولنا التأكيد على أن التاريخ الراهن، ونعني بذلك الإنتاج بشقيه الوطني والأجنبي¹ فيما يخص العصور القديمة، ما يزال في عمقه وبالرغم من التقدم الذي أحرزت عليه الأبحاث في العقود الأخيرة مرتبطا أو لصيقا قى بعض جوانبه بنفس التاريخ المكتوب سابقا.

هذا التاريخ الذي ورثناه عن مؤرخي وباحثي القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، هو "نفسه"، وفي أغلب الحالات، مع نوع من الاختلاف، التاريخ الذي مازال يعاد إنتاجه اليوم بصورة أو بأخرى، وكثيرا ما تكون عملية الإنتاج هذه - بدافع تحرير التاريخ - يطغى عليها طابع التعميم و الإنتقاء أو "التأويل" الذي يبلغ أحيانا كثيرة درجة المبالغة والتشويه حيث تتم إعادة

¹ - أنظر أعمال ميشيل كولتيلوني بشأن تهجير سكان تنكيس و زليس والتي لا تستبعد أن تكون هذه العملية قد تمت بمحض إرادة السكان من أجل غد أحسن (= تحسين الوضعية الاجتماعية، وهو ما يذكرنا بالتاريخ المعاصر، وأنظر أيضا أعمال بيرنار لوغان بشأن بداية التاريخ الذي يربطه بالمغرب بالقرن الثامن الميلادي 1994 و 2000 و يبير

فيرميرين فيما يخص اجترار الصورة النمطية المتعلقة بالمغرب

M. Coltelloni – Trannoy, op.cit., p.128 , 142 ; Bernard Lugan, *Histoire du Maroc, des origines à nos jours*, Paris : Critérium, 1992, p. 12 , Ibidem, 2001, p.18 ; Pierre Vermeren, *Histoire du Maroc depuis l'indépendance*, Paris , La découverte, 2002, p. 7

كتابة تاريخ العلاقة بين الأمازيغي والآخر من زاوية نظر يحكمها العداء والصراع المستمر أحيانا أو الانسجام والانصهار التام أحيانا أخرى، مع التركيز، دون تمييز، على تفاصيل النزاع أو الانسجام في التاريخ والعمل على تضخيمها بعدم استحضار الملابسات وعناصر السياق الكاملة أو الإلتزام بما تسمح به المصادر و المناهج العلمية من تأويلات. ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن غياب الطرح العلمي لهذا النوع من التحليل يرجع إلى أن العودة إلى التاريخ من طرف أصحاب هذا التيار، شأنهم شأن سابقهم أو بعض معاصريهم، ليس المهدف منها تمحيص الحدث والتعريف به وإشاعته على الشكل الذي وقع به في إبانته بحيث يتم التوصل إلى إعادة صياغة التاريخ بطريقة تراعي نسبة الحياد، وتمكن بذلك من تفادي أخطاء الماضي .

إن المهدف الأساسي من وراء "استدعاء" الأحداث المتميزة بطابع "التطابق" تارة أو "التقابل" تارة أخرى، بين الأمازيغي والآخر، أو بين الأمس واليوم، يلمس فيه القارئ نوعا من محاولة القول بأن الحقد أو الانسجام بين كلا الطرفين هو حقد أو انسجام تاريخي متجذر، يعود إلى أصول عميقة ولاشعورية؛ وهو خطاب يهدف إلى إضفاء نوع من المشروعية التاريخية على هذا الحقد أو الانسجام اللذين يراد تأصيلهما لصالح هذا الطرف أو ذاك، مما يؤدي إلى عدم التقيد بالنظرة العلمية الموضوعية للأشياء فينتج عن ذلك "تاريخا معكوسا" يظهر فيه الفينيقيون و القرطاجيون، من جهة، أصحاب سلم و حضارة، في مقابل الأمازيغ المستسلمين والمطواعين؛ ومن جهة أخرى، يظهر الرومان والوندال والبيزنطيون، بمظهر "المتغطرسين" "المضطهدين" المستغلين"، وفي المقابل، الأمازيغ، بمظهر "الضائرين" "الرافضين" "المفطورين على الحرية".

كما لاحظنا أيضا وابتداء من السبعينيات إشادة بعض الباحثين بالفترات السابقة للاحتلال الروماني وخاصة الممالك الأمازيغية من خلال التركيز على الازدهار والتطور اللذين شهدتهما مملكة موريطنيا، مما يجعلنا نتساءل عن مدى صحة هذه الصورة التي تبدو ظاهريا صحيحة، خاصة إذا علمنا أننا نجعل كل شيء عن وضعية السكان وطبيعة الملكية السائدة آنذاك. كما سجلنا مفارقة كبيرة بين مضامين المعطيات المتوفرة والأطروحات المقدمة، بحيث نتساءل مع "دعاة المقاومة الأمازيغية المسلحة المستمرة" عن تاريخ و كيفية تشييد و إنشاء ما تم إنشاؤه من معالم و عمران إذا ما سلمنا بوجود مقاومة "شعبية تحررية مستمرة".

وإذا كان هناك إجماع بين المؤلفين المغاربة والأجانب يكاد يكون أحيانا تاما حول بعض المواضيع كغياب الوحدة السياسية بشمال إفريقيا في العصور القديمة وإخفاق المحاولات التي كانت تسعى إلى تحقيقها، وضعف التأثيرات الفينيقية و القرطاجية بالمغرب، والجمال المحتل من قبل روما ونسبة "الثاقف" بموريطانيا الطنجية مقارنة مع باقي الولايات الإفريقية، وتراجع حدود الولاية عند نهاية القرن الثالث الميلادي، فإن هذا الإجماع لم يصاحبه نفس الاتفاق حول الأسباب، بحيث ما يزال الخلاف قائما بين من يربط ذلك "بطبيعة الجمال و طبائع السكان" وبين من يعتبر التدخلات الأجنبية هي المسؤولة عن ذلك، وبين من يتخذ موقفا معتدلا يجمع فيه بين الرأيين، أي بين ما هو داخلي وما هو خارجي.

وعلى الرغم من تطور وسائل البحث وأشكال المقاربات وتنوع مراكز الإسهامات وما كان لذلك من انعكاس إيجابي في تعديل الصورة التي بنتها الأقلام الكولونيالية والوطنية على حد سواء حول تاريخ المغرب القديم، فإن بعض الثوابت القديمة ظلت مستمرة كما تشهد على ذلك مضامين العديد من الخطابات التي ما تزال تجتر أحيانا نفس المعادلات والتحقيقات والمصطلحات والمفاهيم والتصورات والتمثيلات.

كما حاولنا أيضا، على المستوى المعرفي و المنهجي، أن نبرز - من خلال بعض النماذج بالنسبة للمغرب - كيف أصبحت بعض الأطروحات المتقدمة بفعل التكرار والاجترار تتناقلها الأقلام بلا ملل وبدون تمحيص أو تدقيق ولا مراجعة أو قراءة متأنية، وهي في العمق متجاوزة كليا أو جزئيا، أو ما تزال، في أحسن الحالات، موضوع نقاش بين المختصين؛ ومن خلال اجترار بعض المصطلحات والمفاهيم المتداولة في الكتابات الكولونيالية، كيف يؤدي ذلك أحيانا، بدون قصد، إلى تبني أفكار لا تخلو من صور دونية وقذحية وتنقيصية وتحقيرية، وهو أسلوب يصبح معه المؤلف المغربي، بتبنيه "خطاب" الآخر و"لغته"، يقدم عن نفسه وتاريخه صورة سلبية ونسخة مطابقة في عمقها للخطاب الكولونيالي.

وحاولنا كذلك أن نبرز كيف أن انتقاد بعض الأطروحات أو بعض أشكال المقاربات والإسقاطات -شكلا و مضمونا - لا يمنع من انتشارها والاستمرار في اجترارها بل واعتبارها مرجعية أساسية في البحث أحيانا.

كما حاولنا أيضا من خلال ما تقدم أن نبرز بأن الصورة التي رسمتها الكتابات المغربية حول تاريخ المغرب القديم لم تكن خطية و لا متجانسة طيلة المرحلة المدروسة، وأنه على الرغم من كون

تضخيم الذات هو غالبا ما يطبعها، فإن منطلقاتها ومرجعياتها متنوعة، كما أن بعضها، وإن ظل محتشما، يتميز عن غيره بالاحتراس والابتعاد نسبيا عن الصور النمطية.

ومهما يكن مستوى هذه الإصدارات والمساهمات التي تشكل نسبة عالية، فإن قراءتها تكشف لنا عن بعض المشاكل المشتركة التي كانت وما تزال تطبع البحث التاريخي ببلادنا سواء تعلق الأمر بالتوازن المعرفي، أو بالمنهج المتبعة في التحليل واستغلال المصادر والمراجع، أو بمستوى تصوير الأحداث ومقاربتها.

ولعل من ضمن الأسباب التي ما زالت تعيق هذه الانطلاقة، واقع مكتباتنا، وغياب الأدوات الضرورية للبحث، وتحديث المناهج المتبعة في تدريس التاريخ عموما و التاريخ القديم بوجه خاص بمؤسساتنا التربوية بمختلف أسلاكها .

من هنا النتيجة الأولى التي تفرض نفسها في اعتقادنا وهي ضرورة جمع وفهرسة وترجمة وتكثيف النصوص الأدبية والتعريف بنتائج العلوم "التكميلية" وإنجاز أدوات البحث الضرورية، و خلق فضاءات تمكن المهتمين بتاريخ المغرب القديم من التواصل و تبادل الأفكار و المعلومات.

ولا شك أن تكثيف مثل هذه اللقاءات لتكتسي طابعا دوريا و انتعاش عملية تعريب الإصدارات حول تاريخ شمال أفريقيا أو المغرب القديم لمن شأنها أن تساعد على تطور البحث ومناهجه و تساهم في توسيع دائرة المهتمين بالموضوع .

64